قِطاف

مُخْتَارَاتٌ مِنَ اَلْقِصَّةِ الْقَصِيرةِ فِي قَطَر



دولة قطر
وزارة الثقافة والرياضة

إدارة البحوث والدراسات الثّقافيّة

إصدار خاص

كتاب الدوحة

مُخْتَارَاتٌ مِنَ اَلْقِصَّةِ الْقَصِيرةِ فِي قَطَر

يُوزّع مجّانًا مع العدد (120) من مجلّة «الدوحة» - أكتوبر - 2017

عنوان الكتاب: قِـطـافْ (مُخْتَارَاتٌ مِنَ اَلْقِصَّةِ الْقَصِيرةِ فِي قَطَر)
المؤلف: مجموعة من الكتاب

الناشر:
وزارة الثّقافة والرياضة - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية:
الترقيم الدولي (ردمك):

العمل الفني للغلاف: صورة مُركبة
الإخراج والتصميم: القسم الفَنّي - مجلّة الدوحة

المواد المنشورة في الكتاب تُعبِّر عن آراء كُتّابها، ولا تُعبِّر -بالضرورة- عن رأي الوزارة أو المجلّة.

قِطـاف

مُخْتَارَاتٌ مِنَ اَلْقِصَّةِ الْقَصِيرةِ فِي قَطَر

كتاب الدوحة

مقدمة

لا شك بأن القصّة القطرية قد استطاعت أن تتخطى سياقات نشأتها المتأخرة؛ إذ تمكنت في عقود قليلة من التعبير عن قضايا أوجدتها تحولات بدت حتمية، ولاسيّما في الربع الأخير من القرن العشرين، ولكن هذه التحولات غدت أكثر حدة وتسارعًا، ونحن على أعتاب ختام عقدين من القرن الواحد والعشرين الذي يحفل بتغيرات بنيوية عميقة، طالت كافة المستويات، سواء أكانت اجتماعية أم اقتصادية، أم سياسية، أم ثقافيّة، وهذا يشمل التشكيل المديني للدوحة التي بدأت تتخذ صورتها الجديدة مع ظهور النفط، ومغادرة أنماط الحياة الاقتصادية والثّقافيّة التي كانت سائدة فيما قبل هذه الحقبة.

لقد بدت القصّة القطرية مدركة لسياقات تكوينها الثقافي، وقيمها الحضارية، والموروثة، وهذا ما يجعلها منفتحة على التعبير والتأويل،

والمساءلة، أضف إلى ذلك النقد والبحث في قراءة هذا الواقع الجديد، ومن هنا لا بد أن تُطرح مشكلة الهوية الثّقافيّة، والقيم، وصيغة المكان، والزّمن، بالإضافة إلى تبني قيم إنسانية، أو محاولة صونها في مواجهة قيم العولمة، والحداثة، علاوة على بروز أسئلة كبرى تطال المرأة، ومنظورها الخاص لهويتها الأنثوية، والإنسانية معًا؛ حيث شكلت هذه الثيمات مجتمعة أحد أهم محاور الخطاب القصصي، ولتغدو القصّة منصة تعبيرية، أو المدونة الأنسب لتصوير هذا الحراك الذي بدأ مع كتابات من يوسف النعمة، وأحمد عبد الملك، وإبراهيم صقر المريخي، وعيسى منصور، ومن ثم كلثم جبر، ونورة ال سعد، وأم أكثم، ومحسن فهد الهاجري، وجمال فايز، وهدى النعيمي، وبشرى ناصر، وهزاع خليفة، وصيتة العذبة، ونورة فرج، وهزاع خليفة، وحصة العوضي، وحسن رشيد، وغيرهم ممن أسهموا في تأسيس نموذج خطابي يعكس تمثّلات الواقع الجديد، ووقائعه.

لقد شكل المتغير جزءًا من أسئلة الإنسان القطري، وهو يواجه أسئلة الحداثة، وتحولات مجتمعه الذي ولج حقبة النفط والإثراء التي جلبت معها الكثير من الإشكاليات الحضارية. ولعل هذا يقودنا إلى التفكير في فهم الذات لذاتها، أي بوصفها منظورا لها أو كآخر حسب تعبير بول ريكور؛ تلك الذات التي تستجلب فهما جديدًا لمعانٍ طارئة، تتهدد المكوّن العميق للبنى الحضارية التي سادت لعقود، ولكنها أيضًا تحمل معها شكلًا من أشكال التغيير فيما يتعلق ببعض الممارسات التي لا تنسجم ومتطلبات العصر، فأصبح الإنسان منفتحًا على كافة الأسئلة. ومن هنا نلاحظ بأن خطاب القصّة ينطوي على موقفين متناقضين كما يظهر من الوهلة الأولى، ولكنهما في الحقيقة ينسجمان، كونهما

معنيين في المقام الأول بالإنسان؛ فثمة نموذج خطابي يتلمس واقعه في ظل التهديد الذي يمكن أن يجلبه عالم النفط والإثراء من مخاطر على المنظومة القيمية، بالتوازي مع البدء في تلاشي بعض المظاهر الحياتية والمسلكية من حياة الإنسان القطري؛ حيث بدأت تزحف المدينة بتكوينها الإسمنتي، وقيمها المادية، مما تسبب بتبدّل البيئة التي اعتاد عليها الإنسان شيئًا فشيئًا، ولتمسي المدينة عالمًا غير مألوف، مما يعني المزيد من الاغتراب - ربما - الفلسفي في أحد أشكاله. والاغتراب يعني مرحلة تكون فيها الذات غير قادرة على تلمس وجودها في سياق لا تتمكن من الانسجام معه؛ هذا المسلك طغى على منظور الرواد، بيد أن الجيل الثاني من كتاب القصّة في قطر، وعوا حقيقة قوامها أن حتمية التغيير واقع لا مناص منه، ولهذا سعوا إلى خطاب يتسم بتعديل الفهم، والمنظور والممارسة. وهكذا سعت القصّة القطرية إلى ملامسة هذا المشكل الحضاري، والبحث عن صوتها في عالم بدأت تتعدد أصواته، وفقد الكثير من يقينه، وبذلك تصاعدت وتيرة الكتابات القصصية مع نهاية القرن العشرين، ولكن هذا النهج اتخذ مظاهر جديدة، ولاسيّما عندما أخذ الانفتاح المعرفي، والرقمية، ووسائل التواصل الاجتماعي تسيطر على حياة الناس، بالتوازي مع كافة المناخات السلبية التي حفلت بها هذه الحقبة بالتضافر مع نواتج العولمة، لا شك بأن هذه التحولات انطوت على منظور جديد لفهم الإنسان لذاته، ووجوده في هذا العالم، فثمة توجه لدى كتّاب القصّة نحو فهم الآخر الذي بدا حاضرًا في القصّة القطرية من خلال عدة نماذج؛ فالمجتمع حينها بدا قابلًا للكثير من القادمين أو «الآخر» مما أسهم في خلق فضاء يزخر بثقافات متعددة، عبرت بعض القصص عن آثارها، وهذ تراصف مع تلك المناخات التي استشعرها الكاتب القطري الذي انتقل إلى العديد

من الدول، وخبر العالم الخارجي بهدف الدراسة أو العمل، أو غير ذلك، ما جعله مطلعًا على نماذج حضارية وإنسانية وثقافيّة جديدة، أسهمت مجتمعة في تشكيل وعي جديد للذات التي بدأت تدرك معنى حضورها الإنساني والثقافي كما مثلتها، وأتت عليها قصص كل من أحمد عبد الملك، وكلثم جبر، وهدى النعيمي، وبشرى ناصر، وجمال فايز، ونورة فرج، وصيتة العذبة، وهزاع خليفة، وغيرهم الكثير.

...

يصف هنري جيمس (1843 - 1916) القصّة القصيرة: «بأنها الفنّ الذي ينبغي أن يقول القليل، وأن يحمل من المعنى الكثير»؛ هذه العبارة تعكس فهمًا لفنّ القصّة من وجهة نظر كلاسيكية النشأة، وذلك من إقامة حدود أو مواصفات القصّة القصيرة بعيدًا عن سطوة الرواية التي تتيح مجالًا من السعة والاختيار للكاتب كي يتمكن من التمركز، وتحقيق المستوى الدّلالي السّاعي لنقله للقارئ، غير أن القصّة القصيرة فنّ خطير لكونها مكشوفة؛ إذ لا تتيح للكاتب مجالًا للعودة، أو لتدارك الأمر، فإما أن تحقق القصّة غايتها، وإما أن تشعر بضآلة حقيقتها، وقلق صنعتها نتيجة محدودية زمن القراءة، ومساحة البناء الفنّي.

ولعل هذا الفنّ الذي نضج بصورته المعاصرة بعد سلسلة من الكتابات التي ظهرت تحديدًا في الربع الأول من القرن التاسع عشر في الولايات المتحدة الأميركية، ولتلقى رواجًا هائلًا من القرّاء. لقد جاءت الكتابة تلبية لحاجة الصحافة لهذا النوع من الفنّ الذي شهد ظهور مدارس قصصية أسهمت فيها كل الثقافات العالمية، ولكن القصّة القصيرة في العقود القليلة الماضية تراجعت شعبيتها، ولاسيّما أمام الرواية إلى أن

جاء حصول الكاتبة أليس مونرو على جائزة نوبل 2013 لتستعيد القصّة شيئًا من قيمتها، وحضورها، علاوة على التبدلات التي يشهدها العالم الذي أصبح يتيح مجالًا سريعًا للتلقي لهذا النوع من الفنّ الذي يتوافق مع الإيقاع المتسارع، حيث تصبح قراءة القصّة متاحة على المنصات كالهواتف النقالة، والحاسوب اللوحي، والمحمول، بل يمكن قراءتها في القطار، أو في الحافلة، وغير ذلك كما تشير إحدى المجلات الغربية في تقرير نشر مؤخرًا عن فنّ القصّة، وأفقها المستقبلي. ما سبق يعني أن ثمة طموحًا للقصّة بألا تفقد قيمتها، وأهميتها؛ فالقصّة القصيرة عميقة الجذور تاريخيًا، فهي تكمن في النصوص الدينية القديمة، والحكايات الشعبية، والخرافة (...)، بالإضافة إلى أنها تشكل مخزونًا معرفيًا قابلًا للتطبيق والاستهلاك التعليمي، كما أن البشر مأخوذون بسرد القصص، والاستماع لها.

لا شك بأن الكتابة القصصية في قطر، تنطوي على الكثير من السمات والملامح الفنّيّة التي يمكن أن نلاحظها، فمع الإقرار بوجود قلق شاب الكتابات الأولى من حيث الابتعاد عن البنى المكانية التي تعكس البيئة المحلية، فضلًا عن شيوع الخطابية والمباشرة، وفي بعض الأحيان افتقار بعض القصص لبنى متماسكة، مما ينعكس على جوانب تطور الشخصية، وبناء الحبكة، علاوة على الرغبة في تكريس المقاصد على حساب الشكل، أضف إلى ذلك، افتقار بعض القصص إلى التكثيف، ووحدة البناء، والانفكاك بالكلية عن البيئة الثّقافيّة الحاضنة للفعل السردي، كما الإكثار من التفاصيل، والحشو إلى حد الاقتراب من مفهوم «الحكاية» بشكلها البدائي. غير أن القصّة القطرية سرعان ما بدأت تعي إشكالياتها، وتبحث عن صيغ تقترب من مراحل الإحساس بالبناء

الفني، وتقديره، فظهرت قصص ناضجة، بالإضافة إلى بعض ملامح التجريب والتكثيف والاختزال في كتابات كل من كلثم جبر، ونورة آل سعد، وهدى النعيمي، وجمال فايز، وبشرى ناصر، ونورة فرج، وصيته العذبة، وغيرهم؛ إذ لجأت هذه النماذج إلى اجتراح قصص، تتلمس ذاتها بوعي عميق، كما سياقاتها المجتمعية والإنسانية، بالمفهوم المطلق.

تستند الكتابة القصصية المعاصرة في قطر إلى منظومة من الثيمات التي تستوحي تكوينها من وعي عميق بالقضايا التي تضغط على المجتمع، ولكنها في الوقت عينه، تستند إلى بعض التأمل في تكوينها الفني بوصفها مجالًا من الفن، وبذلك نستنتج أن القصّة القطرية ما زالت في طور البحث عن هويتها الفنّيّة؛ فمعظم كُتّاب القصّة يستهدفون مجالًا حيويًا من التّمركز حول المقاصد الدلالية التي تعني أن ثمة إحساسًا بأن الكتابة ما هي إلا مجال تعبيري، يصنع أنماطًا من الخطابات السّاعية إلى تكوين ممارسة فاعلة في تفكيك بعض الإشكاليات، والتي تبدو اجتماعية بامتياز، ولكن هذا يتحقق ضمن المتخيل.

ما زالت القصّة القطرية تحتفظ ببنيتها الحذرة، والتي لا يمكن أن نصفها إلا بأنها بنية تؤمن بالكتابة الآمنة، ومع أن التجريب حاضر، غير أنه محدود بحيث لا يكاد يشكل اتجاهًا بعينه، في حين أن كافة العناصر القصصية تستند إلى نماذج من الشّخصيات التي تبدو في معظم الأحيان مكتملة التكوين بوصفها تحيل إلى مرجعية، يراد منها تكريس النموذج الواقعي، وهذا ربما يبدو أكثر انتشارًا في كتابات الربع الأخير من القرن العشرين لدى كل من يوسف النعمة، وأحمد عبد

الملك، وكلثم جبر، ونورة ال سعد، وغيرهم، في حين أن بناء الشخصية في القصص التي تلت مرحلة التأسيس، قد بدأ يتخفف من الخصائص والمواصفات التي تُعْنَى برسم الشخصية، وتقدير قيمتها، أو مرجعيتها الواقعية إلى حد ما؛ فمعظم الشخصيات تبدو ذات تكوين وظيفي تبعًا لمنظور بروب، والأدوار المنوطة بالشخصية، أو الأفعال السردية، فهي تستهدف الرغبة بحمل تكوين علاماتي وإشاراتي، يسعى إلى خلق عالم دلالي كما في قصص أحمد عبد الملك على سبيل المثال الذي عدّل أدواته، ولاسيّما في قصصه التي أطلق عليها «نوافذ»، ونشرها في العقد الثاني من القرن الحالي؛ إذ نرى فيها الشخصيات مجسدة في أدوار وظيفية واضحة بهدف الاتصال بالأثر الدلالي، بغض النظر عن أية عوامل أخرى، فالشخصيات لا تخرج عن الزوج والزوجة والابن، والأرملة، والفتاة، وهي شخصيات تتخفف من الكثير من القيم البنائية التي سعت القصّة الواقعية إلى الاعتماد عليها سابقًا، من حيث رسم ملامحها القائمة على البنائين الداخلي والخارجي، وتجريدها من بعض الأبعاد، ولكن هذا النسق يبدو سمة مشتركة في الكثير من القصص القطرية، فتحضر الشخصيات ضمن نماذج المرأة، أو الفتاة المقهورة، وهناك الأرملة، والزوج، والزوجة، والابن العاق، والحبيب، وغير ذلك من الأدوار التي نراها على سبيل المثال في قصص جمال فايز، وهدى النعيمي، وبشرى ناصر، ونورة فرج، فضلًا عن أسماء طوّرت تقنياتها الكتابية ومنهم كلثم جبر، ونورة ال سعد.

في هذه المختارات التي يقدمها هذا الكتاب تمثيل متباين في موضوعاته عن واقع الكتابة القصصية في قطر، فثمة أولا تباين زمني بين النصوص المختارة، فضلا عن كونها تمثل نسقًا من الكتابة التي تعبر

في جزء منها عن منظور نسوي، بالتجاور مع كتابة عابرة للمكوّن الاجتماعي الذي يطغى على القصّة القطرية، ولهذا نرى في تضاعيف هذه المجموعة نزوعًا انتقاديًا يكاد يهيمن على بنية القصّة القطرية من حيث تقنين الإحالات العلمية إلى المكان، والارتهان إلى الفضاء الأبيض، أو المعمّى، ولاسيّما في تكوين الفضاء الحاضن للمتخيل، أو تلك الإحالة المرجعية، وهذا يعلل بأن الكتابة القصصية تعدّ مجالًا للتأثير على بنى عميقة في التكوين المجتمعي، وهذا ربما لا يكون مستساغًا في بعض الأحيان لمجتمع ما زال يقدّر خصوصيته.

الكتابة القصصية كما يصفها «إدغار آلان بو» معنية بالتأثير الفردي، والذي يتلخص بمحدودية العالم القصصي المعني بواقعة معينة من أجل التمكن من وعي القارئ عبر التكثيف العميق الذي تتميز به القصّة عامة، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن القصّة من الفنون التي تتكئ على شخصيات منبتة الجذور؛ فهي تمتلك أقل قدر من الماضي، ولا نعلم الكثير من مستقبلها كقراء، هي رهينة اللحظة، كما الحدث الذي يعبرها من أجل الوصول إلى لحظة التنوير الذي يجلل القصّة، ويضفي القيمة التعبيرية لها، وهكذا تبدو القصّة القصيرة -من وجهة نظري- من أشد الفنون تأثيرًا على وعي المتلقي الذي يواجه بعالم سردي مقتصد فنيًا، ولكنه مع ذلك يمتلك كافة العناصر التي يمكن أن تؤسس لوعيه، كما أنها تتصل بقدرتها على تفعيل الإحساسين: الفكري والشعوري، ولهذا شكلت القصّة القصيرة خيارًا متقدمًا للتعبير، وهذا تزامن مع توفر وسيلة أو منصة النشر، والتي تمثلت بالمجلات والصحافة، والقدرة على الوصول لأكبر قدر من المتلقين، وتحديدًا في الستينيات والسبعينيات من تاريخ الكتابة القصصية في قطر، وصولًا

اليوم إلى تعدد منصات النشر، ومنها الالكتروني، والتقليدي على حد سواء.

تشكل المختارات التي بين أيدينا مجالًا أو طيفًا من التمثيلات التي تخضع لمبدأ الثيمة، والشكل الفني؛ فهذه المختارات تمثل وعيًا جمعيًّا مشتركًا، ينوء بحمل هموم الإنسان ووعيه، وهذا ما نجده في الثيمات المشتركة بين هذه القصص التي يبرز من خلالها النموذج الخطابي النسوي، وبوجه خاص في علاقته مع النموذج المتعالي للمجتمع في تعاطيه مع المرأة، وأفقها، وما يمكن أن يعني لها عالمًا يُثمّن وجودها بوصفها كائنًا لطالما نُظر له بوصفه وجودًا غير مكتمل، كما نلاحظ أيضًا في القصص تقديرًا للماضي، وكتابة قيمية وإنسانية.

...

تكتسب هذه المختارات أهميتها من كونها، تعكس مشهدية الخطاب القصصي الذي يعبر عن عدد من القضايا التي يتشاركها الوعي السردي؛ فثمة قصص تنشغل بتفكيك المنظور الذكوري المتناقض أو القلق من ناحية التعاطي مع تكوين المرأة ودورها، وتبعًا أيضًا لدورها الإنساني والحضاري.

ومن الثيمات التي يمكن أن نتبينها في هذه المختارات التمحور حول المنظور الماضوي المتصل بقيم عليا، وعالم إيجابي، غادرتها الشخصيات الساردة، هي كتابة تستند إلى منظور إنسانوي، وهذا يجعلها على علاقة مع الخطاب الأنثوي الذي يُعنَى بالبحث عن صوته، وحضوره الإنساني البسيط والمجرد. تتخذ الكتابة في هذا القطاع نسقًا إنسانيًا يشكل نظامًا خطابيًا من حيث النكوص نحو الماضي،

ومحاولة صون المنظومة القيمية، والتمحور حول الهوية الوطنية، وتثمين المظاهر التراثية، وبالإضافة إلى تضمين بعض القصص أبعادًا أخلاقية، منها نقد المسلكيات السلبية التي نتجت بفعل التحولات المجتمعية والثّقافيّة التي حملتها رياح ما بعد الحداثة والعولمة الهادفة إلى تبديد التمركز على الاختلاف، وردم الهويات الضيقة، وكما نفي الحدود بين الثقافات من أجل بناء نموذج اقتصادي، يسمح بمرور البضائع والسلع كما الأفكار، وهكذا نتجت تمثيلات متوجسة من هذا الطارئ الجديد، وانعكس بشكل جلي في الكتابة القصصية في قطر.

في الختام، تشكل القصّة القطرية مجالًا رحبًا من أجل فهم التكوين العقلي، والفكري المتعالق مع حقيقة التغير والتحول، ولهذا ثمة نمط من الكتابة التي تثمن بعض الثيمات أو الموضوعات على حساب الأخرى، من منطلق خصوصية الجغرافيا والتاريخ، ولكن هذا يتحقق تبعًا أيضًا لأنماط الحياة التي تنعكس على القيمة الثّقافيّة للإنسان، ورؤيته الجديدة لذاته. ثمة إشارة إلى خطابات أيديولوجية معنية بالجوار العربي، والقضايا الرئيسة في العالم العربي، كالقضيّة الفلسطينية، وغزو العراق، والربيع العربي، وغير ذلك، كما ثمة نسق من محاولة رفض التمثيلات التي تطال العربي والمسلم، وهذا مما يقع في سياق المواجهة الحضارية، ومع ذلك تبقى الخطابات الأنثوية، والمتعلقة بالهوية، والتشكيل القيمي، كما النزوع الماضوي الأكثر انتشارا، وحضورا، وهي غالبًا ما تأتي في كتابة تعتمد بنية مباشرة، وفي بعض الأحيان تلجأ إلى الترميز والتكثيف والاختزال، أو الاحتفال بالأجواء الاستعارية، والكنائية، كما يمكن أن نجد قصصًا تعتمد مبدأ الحدث، أو الحبكة، في حين أن ثمة قصصًا تعتمد مبدأ الشخصية،

والنموذج النفسي، كما ثمة نبرة من السخرية، وبناء المفارقة، وتجسيد العالم، ولكن من وجهة نظر فلسفية في بعض الأحيان، ومع ذلك ينبغي للقصّة القطرية أن تبدأ في تأمل ذاتها للبحث عن صيغتها المستقبلية؛ فالكتابة تفكير ربما يسبق الممارسة، أو يمهد لها، فالقصّة أداة للتصوير، ولكنها أيضًا تعدّ وسيلة للتعديل والبناء، وفي ظني بأن القصّة القطرية تشكل ظاهرة يمكن أن تمضي قدمًا لتكون مدونة رئيسة في الأدب القطري، والعربي.

د. رامي أبو شهاب
2017/09/15
الدوحة

كَلْثَم جَبْر

(الموت مرتين)

د. كلثم جبر الكواري

- (1985): بكالوريوس الخدمة الاجتماعية، جامعة قطر
- (1992): ماجستير الخدمة الاجتماعية، جامعة حلوان
- (1997): دكتوراه الخدمة الاجتماعية، جامعة القاهرة
- (1998): عضو المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث
- (2005): رئيس لجنة البحوث والدراسات بوزارة الثقافة
- (1990): عضو جمعية اتحاد الكتاب العرب
- (1999): عضو جمعية الأدباء القطريين
- رئيس تحرير مجلة استشراف المستقبل في مركز قطر لاستشراف المستقبل
- (1999): جائزة الإبداع العربي من جامعة الدول العربية، مهرجان الرواد العرب الأول، القاهرة.
- (2008 - 2009): جائزة اللجنة الوطنية لحقوق الإنسان
- (2010): جائزة خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله لتكريم المرأة الخليجية، مهرجان الجنادرية، المملكة العربية السعودية

صدر لها:

- أنت وغابة الصمت والتردد (قصة قصيرة)
- وجع امرأة عربية (قصة قصيرة)
- إيقاعات للزمن الآتي (قصص قصيرة)
- أوراق ثقافية (دراسة أدبية)

الموت مرتين

(1)

في سماء فينيسيا الحالمة.. حيث الليل والموج، وبقايا صراخ امرأة نشوى، ترصدت وجهك المكتحل بلون الرمل القائظ في بلادي حيث يستحيل التراب قمحي اللون.. سنابك تنبئ بقدوم مواسم الحصاد..

وددت الموت مرتين..

كانت موسيقى المقاهي المجاورة لرصيف الميناء في ساحة «سان ماركو» لم تزل بعد تعزف أنغامًا، متبادلة، فبينما يصمت عزف هذا المقهى.. يصدح المجاور بأنغامه؛ هكذا في ترنيمة منتظمة تعانق موج البحر. كان الراقصون يتبادلون ارتشاف الحلم في إغفاءة المساء، ويتبادلون توسد أذرع أحبتهم وصدورهم.. ويتبادلون الإيقاع الراقص أمام كلّ مقهَى.

وكنت وحدي أحلم بتشردك.

لفظت مختلف المدن وجوه أناسها الهاربة من جزع واقع مطحون، إلى قيلولة ممطرة بتلك الساحة العريضة «سان ماركو» حيث تحيط بها بيوت «فينيسيا».. صغيرة، هادئة، دافئة، متلاصقة، والمطر ينهمر رذاذًا ناعمًا، يغري السياح بالالتصاق مستمتعين بالدفء والموج، في حين شرعت المقاهي تسدل أغطيتها فوق رؤوس روادها الذين اغتسلوا برذاذ المطر، وهم يجاورون الجوقة الموسيقية العازفة أنغامَها في كلّ مقهَى، فتنزلق القطرات جذلى برائحة الصيف المشبع بثقل الزهور المتدلية من نوافذ تلك المدينة الصغيرة.. وهي تغط دونما صخب في الماء.

كان المساء خرافي البهجة.

وكنت أعلن البحث عن قامتك الفارعة حينما استدار وجه أخي مبتسمًا وهو يهم بمغادرة المكان، معلنًا انتهاء الجلسة، ودقات ساعة الساحة تعلن الثانية عشرة ليلًا.

وكنت لم أزل أعلن البحث عنك.

لم أكن محاطة بالجمع كما تصورت رغم وجود أمي وأبي ووجه أخي المبتسم دائمًا، وأطفالنا.

قررت الانتشاء بالصمت والسفر في لجة غيابك عَلَّني أجدك.

ورغم الدهشة، ومداهمة الوحدة لي، وجدتك.

كنت تبحث عن ذوائبي وجديلتي الراقصّة فوق ظهري، وعن ألفة ضجيجي، ونزقي الطفولي، وملليّ، كما قلت أنت.

وكنت أبحث عن رعشة هدوئك وانصهارك في الفزع المترقب دونما نهاية، وعن لون جلدك البني المصهور بالشمس، وعن حزننا المتلون بالقهر معًا، في صدرينا من تضاد الأشياء.. كما قلت أنا.

كنت أترقب هطولك..

وكنت تتتبع سفري إلى أيّ المدن سأحط الرحال.. هربًا من قيظ مدينتي اللاهب.

من وَجَدَ كلينا؟!.. لا نعلم، لكننا اتحدنا في اللحظة ذاتها، بعد أن عبرت طرقات «فينيسيا» المتفرعة، المصقولة، وكقطة أليفة توسدت كتفك وأنت تداعب جديلتي السوداء الملقاة فوق ظهري وتبتسم:

- أين عباءتك؟

ابتسمت وأنا أنهمر ضحكًا في عينيك:

- وأنت أين غترتك وعقالك وثوبك الأبيض؟

وانهمرت ضحكًا.. في عيني:

- وهل يعقل أن أكون في مدينة كهذه..؛ هل يرتدى والدك ذلك؟!

- وهل يعقل أن يكون أبى شرقيا في مدينة كهذه؟! لذلك فأنا أيضًا: لا.

وعاودت الضحك أنت هامسا:

- نحن رجال.

وعاودت الغضب الضاحك أنا هامسة:

- وأنا امرأة.

وسرنا نختنق بالضحك معًا.

(2)

كانت المحاكمة جائرة..

القاضي صامت، والقاعة واسعة، لكن المدعي العام متوثب كنمر أحمق يوشك أن ينشب أظافره في لحم البراءة ليدميها قبل أن تثبت إدانة المتهمين، وهو لم يزل يلتهم الحضور بنظرات مترقبة شرسة.

الدفاع ضعيف..

أجفله توثب المدعي العام.. فتراجع مخذولًا، والشهود فقط كنت أنا، والنظرات تلاحقني، وخلف القضبان انتصبت أنت مسكونًا بالدهشة والجزع، أذهلتك المفاجأة القدرية في مثل هذه القاعة، مستنكرًا، تمردي وانفصامي عن واقعي كامرأة يجب أن تضطجع في الخدور بدلًا من أن تستقيم في مثل هذه الأماكن كالرجال، حيث سقطت نظراتك المرعدة كالريح، القاصمة جسدي الملتف بالعباءة السوداء.. تراجعتْ لحظة كالبرق عيناك، واستقرت فوق وجهي العاري الذي رفعت عنه انسدال الغطاء الأسود، لكي أجهر بشهادتي أمام القاضي لتبرئتك.

كنت مشحونًا بلحظة الانفجار..

ولم يكن اليوم عاديًا..

كانت الريح تلطم الأبواب، وزجاج السيارات وأجذع النخيل، بالخارج،

وتقذف بحبيباتها سيلًا ترابيًا يدمي العيون، ويسد الضوء معتم الرؤية أمام مقاود العربات الفارهة.

في الداخل كنت تصرخ في صمت، وتزأر في صمت، وتعوي في صمت، وتهذي في صمت.

كنت مريضي، وكنت طبيبتك، وكانت شهادتي الوحيدة التي سوف تنقذ جسدك من أن يجثم عدة سنوات خلف القضبان.

لكنك رفضتني كطبيبة، ولفظتني كحبيبة، خوفًا من انحدار السيف فوق رقبتي، لكي أظل أنا.. دومًا أنا.. لذا حاولت الصراخ..

حاولت مد يديك لكي تعيد انسدال الغطاء الأسود فوق وجهي..

حاولت، وتصدعت، وقاومت، وتشرخت، وقاومت..

هويت مغشيًا عليك..

وأرجئت المحاكمة إلى جلسة أخرى قادمة..

بعد أن تسلقتْ وجهي العيون، ولاكتني الألسنة المتلهفة لمغادرة القاعة لنشر الحكاية، دون أن يستمع القاضي بعد لشهادتي.

(3)

انتفضت كطائر بلله مطر.

والطرقات الصاخبة تتوالى على الباب.

لا لم أنتفض بعد.

تمددت على السرير عارية القدمين والكتفين.. و..

كنت لم أزل أحلم..

كانت الهمهمات تخترق صمت الجدران، وتصلني عبر الباب الموصد لغرفتي..

وهذا ما توصلت إليه ابنتك من التعليم والحرية والسفر.. و.. و..

وكان هذا الصوت لأمي، وكانت تلك الهمهمات لأناس آخرين، وكان المتهم هو أبي..

رعد الباب تحت أيديهم وكانت انفراجته واسعة أمام الأقدام المداهمة غرفتي..

وحين رفعت عينيّ..

كان وجه أمي أمامي، علمت أن النهاية بكل أشكالها قد حانت، ومن وراء ظهر أمي كان أبي، ومن وراء ظهر أبي كانوا إخوتي، وكانت عيون الأطفال أيضًا ترمقني، ومن خلفهم كانت عيون الخدم، وعيون بعض الجيران..

وكنت لا أزال ممددة على السرير..

عارية القدمين، والكتفين.. سحبت الرداء ببطء أغطي بقية جسدي، وجزءًا من ذوائبي الثكلى، هذا كلّ ما فعلته.. وعاودت الحلم.

(4)

- لا يمكن عودتك للعمل.

-...

- صدقيني لا أستطيع.

-...

(يسكنني وجهك المطل من خلف القضبان في انتظار المحاكمة).

- أعلم أنك من أكفأ الأطباء لديّ، وأكثرهم حضورًا، ويقظة، لكن هناك أمر بإعفائك من العمل، سببه أبوك.

- ...

(يرهقني الحلم، وسماء فينيسيا الحالمة، وامتداد الجرح، وأغنية الجندول.. وتلاصق وجهينا في ذلك المساء المضرج بحمرة غروبه، حيث تناثرت النجوم في إطلالة فضية في انتظار القمر، ومغني الجندول يهزج بأغنية، فيتماوج ضوء الشموع بصدى صوته السابح فوق الماء).

- هو خطؤك؛ كيف لطبيبة قديرة مثلك، عريقة مثلك، شامخة مثلك، ابنة فلان مثلك، تتعاطف مع مريض ابن فلان سيِّئ السمعة مثله؟

- ...

(كنت وحدك من استطاع احتوائي بعد أن طاردتني مختلف الوجوه،

كنت طبيبتك أمامهم وكنت طبيبي أمامي).

- كما أن شهادتك في المحكمة لن تقبل بناء على ما سوف نشهد به ضد هذا المريض.

- ...

(آه.. يا وجعي.. كيف استطاعوا مقاضاتي بهذه السرعة، وكيف استطاعوا هزيمتي بهذه الحدة، وأنا ذات الشهادات، وذات المنصب، وذات الكفاءة، وذات النجاحات المتوالية؟).

سقطت بعض الأشياء في لحظة معتمة بالحزن؛ خلعتُ رداء الطبيبة الأبيض وأحكمت العباءة فوق جسدي، وأسدلت الغطاء على وجهي، وأنا أغادر أروقة المستشفى بحثا عن تلك العربة الفارهة التي تنتظرني في الخارج.

لقد سقطت كلّ الأشياء، حينما تناولت الخادمة حقيبة يدي، وفتح لي السائق باب العربة، وهو يناولها بعضا من أوراقي وأسورتي الماسية التي التقطها قبل أن تهبط على الأرض تحت قدمي.

ولم تكتمل الحكاية.

(5)

في الرابع والعشرين من الشهر..

صرخ القاضي بالإدانة..

لم أكن أستطيع تبرئتك؛ لم تقبل شهادتي، كانت ضعيفة، كنت طبيبة سابقة وامرأة..

وكان القاضي رجلًا..

وكان أبي رجلًا..

وأمي أصبحت رجلًا..

إخوتي رجال..

وكان الجيران، حتى الإناثُ منهم، رجالًا..

ولم تكتمل الحكاية بعد.

(6)

كنت في سجنك الرابع.

وكنت حبلى في شهري الرابع.

بعد أن امتلك جسدي رجل آخر.

كنت امرأته..

وكان رجلي..

وكنت قد تحولت إلى ربة بيت بعد أن كنت طبيبة..

وكان زوجي لم يزل يعمل قاضيا: وكان جلادك، وكنت سجينه..

وبهذا اكتملت الحكاية، وإرهاصة الحلم في «فينيسيا» تمطرني كلَّ مساء بوابل القهر المزوج بالوجع..

فأود الموت مرتين.

محمد حسن الكواري

(أبدًا لم تكن هي)

محمد حسن الكواري

- بكالوريوس كلية الشريعة والقانون من جامعة قطر
- دبلوم دراسات عليا في التربية جامعة قطر
- المركز الثالث في مسابقة القصة القصيرة التي نظمتها وزارة الثقافة والفنون والتراث 2006
- عمل في التربية والتعليم مدرسا وإداريا لمدة عشر سنوات
- يشغل حاليا رئيس قسم البحوث والدراسات في وزارة الثقافة والرياضة

أشرف على إعداد:

- دليل المؤلفين القطريين
- دليل المؤسسات الثقافية في دولة قطر
- إصدارات وزارة الثقافة والفنون والتراث من 1976حتى 2013
- صدرت له مجموعة قصصية بعنوان «أبدا لم تكن هي»

أبدًا لم تكن هي

جلست أمامه في مكتب التحقيق الضيق على كرسي خشبي يطوق نصف جسدها حاسرة الرأس محتشمة الثياب، تنظر بعينين حادتين إلى الكرسي الفارغ الذي أمامها، وكأنها تنظر إلى شخص جالس عليه، واضعة يديها على فخذيها، بشعر قصير وبوجه متعب تخفي وراءه وجوهًا كثيرة.. أخذ نفسًا عميقًا من سيجارته ونفثه في وجهها، لم تكترث بسحابة الدخان التي غطت وجهها، ولم تحرك يدها لتبعده عنها، ارتفع الدخان رويدًا رويدًا إلى سقف الغرفة..لم يخرج منه إلا القليل من نافذة صغيرة في سقف الغرفة.. قام من مكانه يسألها:

لماذا قتلت زوجك؟

أنا لم أقتله.

كل القرائن توحي بأنك القاتلة، لقد كان يضربك ويشتمك أمام الناس ولا ينفق عليك، أخذ كلّ أموالك وباع ما تملكين من حلي.. عاطل عن العمل، لا يسمح لك بزيارة أهلك، وعندما كنت تمرضين لا يصطحبك

إلى المستشفى، ولم يفعل ذلك قطّ في يوم من الأيام.

أجل لقد فعل كلّ ذلك، ومع ذلك لم أقتله.

هل كان يستحق الموت؟ هل كنت تتمنينه له؟

نعم كان يستحق الموت، لكني لم أدفعه إليه. قام من مكانه ومشى عدة خطوات حتى أخفاها خلف ظهره وأخذ يتمعن في صورة معلّقة على الحائط تبادله النظر، نفث في جانب الصورة دخان سيجارته والتفت إليها.

لو كنتُ مكانك لقتلته منذ زمن وتخلصت منه؛ كيف صبرت عليه كلّ هذه المدة؟

ليس لدي حيلة، وأنا امرأة مسكينة لا أقوى على قهر الرجال.

إذًا مَن له مصلحة في قتله؟

لا أدري، أعداؤه كُثر.

على أي الأماكن كان يتردد في الفترة الأخيرة؟

لا أعلم؛ فلم أره في الفترة الماضية إلا نادرًا، كان يبيت خارج البيت بالليلتين والثلاث..اقترب منها وأخذ يحدق في صفحتي خديها.

ما هذه الكدمات التي على وجهك؟!

هو مَن فعل ذلك؟

لكنه رحل منذ شهرين.

جسد المرأة ليس كجسد الرجل؛ إذا ضُربت لا يزول أثر الضرب من بدنها بسرعة.

لم يكترث لما قالت، وحوّر طريقة كلامه لعله يجد مدخلًا آخر.

ألا تغفر المرأة للرجل إذا ضربها؟

تغفر له؟.. ربما.. ولكن لا تنسى.

وأنت لم تنسي لزوجك ما فعله بك؟

أنا لا أنسى ولا أغفر.. ولا أقتل.

مسحت أرنبة أنفها بسبابتها مرتين، وسألته بخجل، هل تضرب زوجتك؟

نظر إليها بوجه كليل وهو يشرب كأس الشاي الأسود.. مَن في هذا الزمان لا يضرب زوجته؟

- وهل تجالسها بعد أن تضربها؟

لا؛ فأنا لا أطيق النظر إليها ووجهها مليء بالكدمات.. تهز رأسها باستهجان.

غريبة مع أنك أنت من كدمها..وهل تُقبّلها بعد ذلك؟

إذا دعت الضرورة.

الضرورة أم الغريزة؟

الغريزة ضرورة.

أخرج سيجارة إلى منتصفها من العلبة ومدها إليها، فرفعت يدها ممتنعة.

يضع السيجارة في فمه دون أن يشعلها ويسألها.

هل سمعت بنساء قتلن وسرقن وترأسن عصابات؟

نعم سمعت..ولكني لست منهن.

وهل سمعت بنساء قتلن رجالًا أبغضنهم؟

بل سمعت بنساء قتلن رجالًا لم يعشقن أحدًا مثلهم.

وأنتِ إلى أي صنف تنتمين؟

لا إلى هذا ولا إلى ذاك، أنا لست من فصيلة القتلة.

.. يطوف حولها وهو شابك يديه خلف ظهره.

لماذا تركت وظيفتك؟

هو أجبرني على تركها.

لماذا؟

لكي أخدمه وأكون له وحده.

هل كان زوجك شيخًا متزمتًا؟

لا.. بل كان سكيرًا ومدمن مخدرات.

أخذ يعب كأس الشاي الأسود البارد، وهو يقلب الورق الذي أمامه في حيرة ويأس، ويرفع يده مستسلمًا.. مع أن القرائن توحي بأنك القاتلة، لكني لا أستطيع إلا أن أخلي سبيلك؛ فأنا لا أملك دليلًا قاطعًا ضدك.

قامت من مكانها ووقفت بجسد مشدود، وعدلت من ثيابها، وسألته بوجه خلا من كلّ تعبير.. هل تتمنى رؤيتي مرّة أخرى؟.. باغتته فلم يستطع لها جوابًا..

استوقفها وهي ذاهبة، هل ستتزوجين بعد ذلك؟

وهل يصبر الرجال عن النساء؟

لا أظن.

من أجل ذلك نتزوجهم.

يقهقه.. ومن يقبل بامرأة متهمة بقتل زوجها؟

الكثير، أولهم حارسك الشخصي عبد التواب.. قالتها بكبرياء واستهزاء. يقرع جرس الحاجب وهو مقطب الجبين دون أن يرفع يده.

-عبد التواب؟ كيف أوقعتِه في شباكك؟ قال لها باستياء.

ردت بصرامة..أنا أرملة ولست حشرة سوداء.. في البداية كان يشفق عليَّ والآن أنا أشفق عليه.

يدخل عبد التواب متهيئًا لموقف تأهب له جيدًا.

- يصرخ المحقق وهو يشير إليها بإصبعه كمتهمة في جريمة قتل.. هل ستتزوج هذه المرأة يا عبد التواب؟

إذا سمحت لي يا سيدي.

وهل تعلم أن لها زوجًا قتيلًا؟

نعم يا سيدي، أنا أول من علم بذلك.

وأنها متهمة بقتله؟

المتهم بريء حتى تثبت إدانته...

ألا تخشى على نفسك منها يا عبد التواب؟

الرجل لا يهاب النساء يا سيدي، هذا ما تقوله دائمًا.

متى ستتزوجها؟.. قالها بيأس.

إذا أكملت عِدتها.. بعد شهرين وعشرة أيام.

أذن لها المحقق بالمغادرة، فانصرفت وانصرف الجميع بعدها.

بعد ثلاثة أشهر جلست أمام المحقق على الكرسي الخشبي الذي يطوق نصف جسدها، بوجهها الحاسر ولباسها المحتشم وشعرها القصير، لا يبدو في عينيها الخوف، وقد وضعت ساقًا على أخرى، وهي تنظر إلى المحقق.. أخذ نفسًا من سيجارته ونفثه بعيدًا عن وجهها وأمسك بقلم وأخذ ينقر به على ورقة بيضاء.

-من قتل زوجك عبد التواب؟

لا أعلم..

لقد وجدناه مقتولًا في بيتك يا امرأة..قالها وهو يكتم غيظه.

أنا لم أقتله..قالتها بتماسك..أخذ يدور حولها.

كيف كان يعاملك؟

سجّانًا..لا يجيد مهنة أخرى.

وكيف كنت تعاملينه.

سعيت إلى راحته.

أخذ يحك رأسه وهو ينظر إليها بيأس.. غريبة، لم أجد أي دليل ضدك هذه المرة أيضًا.. أرى أنك بريئة..بإمكانك المغادرة....نهضت وعدلت ثيابها وخرجت بهدوء..مشت عدة خطوات حتى استوقفها عند باب المكتب، توقفت دون أن تلتفت إليه، مشى نفس الخطوات التي مشتها، ودار حولها ووضع وجهه قرب وجهها وقال لها بعد أن أراح عضلات وجهه:

بصراحة.. لقد بدأت أرتاح إليك.. وأشفق عليك، وأتمنى أن أراك مرّة أخرى.

وضعت يديها على جانبي شعرها القصير، وطفت ابتسامة غريبة على وجهها ذلك الوجه المتعب.. الذي تخفي وراءه وجوهًا كثيرة.

حسن رشيد

(الحضن البارد)

د. حسن عبد الله رشيد

- مذيع وقاص وكاتب وناقد وباحث في مجال المسرح
- حاصل على درجة الدكتوراه في فلسفة الفنون، نقد وأدب المسرح المعهد العالي للفنون المسرحية، القاهرة
- عمل مديراً لإدارة الثقافة والفنون، المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث
- يعمل حالياً خبيراً إعلامياً في مكتب رئيس الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون
- عضو مجلس إدارة نادي الجسرة الثقافي الاجتماعي، ورئيس اللجنة الثقافية والاجتماعية في النادي
- عضو مؤسس في المنتدى الشعري القطري
- عضو اللجنة الدائمة للمسرح في قطر
- مثل قطر في مهرجانات أدبية وثقافية ومسرحية عديدة

صدر له:

- الموتى لا يرتادون القبور(مجموعة قصصية)
- القضايا الاجتماعية في الدراما القطرية (دراسة أدبية)
- الحضن البارد (مجموعة قصصية)
- جدلية العجز والفعل في القصة القطرية (دراسة أدبية)
- أصوات من القصة القصيرة في قطر،(دراسة أدبية)
- الظل والهجير (نصوص مسرحية)
- المرأة في المسرح الخليجي (مسرحية)
- الصوت والصدى ومسرحيات أخرى (مسرحيات)
- (1965-1990) تطور النقد المسرحي في دول الخليج العربي (دراسة أدبية)

الحضن البارد

كنا مجموعة أشقاء.. نبحث عن الدفء في برد الشتاء القارس، لم نكن نجد هذا الدفء إلا في حضنها.. في ركنها المعهود، كانت تنام دائمًا على جنبها الأيسر.. ننطلق نحن الصغارَ في صراع يومي للاقتراب من مركز الدفء.. كنت دائمًا أحتل مكان الصدارة في كلّ مرّة، وعند أي محاولة للاقتراب منها كانت تدفع بيدها اليمنى أشقائي، وبعض أولاد عمومتي.. أو تلكز أحدهم في ظهره، وإذا استدعى الأمر أكثر من هذا، سحبت بخفة «المهفة»، وضربت أحدهم على ساقه، أو ضربت بيدها على ظهره. كان إبراهيم، ابن عمي الأكثر إغاظة لها، ولذا كانت ثورتها مجال تندرنا؛ كان إبراهيم يقترب منها.. ثم يندس بحركة آلية في حضنها.. كانت تدفعه وتصرخ فيه «قوم انجلع.. جلعك الله» كثيرا ما تمد يدها وتسحبني كأرنب أليف إلى صدرها، ألصق عندها ظهري الهزيل، بصدرها الدافئ فأشعر بالأمان، وبحركة حفظتها كانت تسحب بيدها اليمنى رجلَيَّ بالقرب من حضنها، وتمد يدها كي تسحب اللحاف فوقي، تحاول أن تغطي وجهي فأرفض، كنت أشعر بالاختناق، تقول عندها بنفاد صبر: مثل أبيك بالضبط، وتكمل في

غيظ: لم ترث منه إلّا العناد والرفض.. لا تعرف مصلحتك.

يزحف الإخوة، وأحيانًا أولاد العمومة في صمت تجاهها، وتقول عندها في حنان مباغت «ها يا عيالي.. إيش تبون تسمعون؟».. لا أسمع سوى الصرخات؛ وتنطق الأفواه.. بودرياه، حمارة القايلة، الفسيجره.. تتعدد الطلبات، والإصرار على سماع نفس الحكايات، لقد مللت من هذه الحكايات حفظتها عن ظهر قلب؛ أنا أكره هذه الحكايات السخيفة. تضحك أمي «العودة»، وتقول بود مصطنع: انزين.. انزين.. حاضر.. حاضر، وأنا الوحيد الصامت الذي لا يشارك في إبداء الرأي، أنا أخاف من تلك الحكايات؛ نعم أخاف، في كلّ مرّة تسرد على مسامعنا «أمي العودة» تلك الحكايات، أراها تتمثل في الكائنات العملاقة.

أعرف.. إنكم لا تصدقون؛ ذات ليلة التقيت بواحد منهم، شاهدته بأم عيني.. نعم شاهدت «بودرياه»؛ كان يتحرك على الضوء الخافت المنبعث من «الفنر»... نعم شاهدته، حاولت أن أصرخ، أن أفعل أي شيء.. وفعلت ما كنت أخشى أن أفعله!! لأول مرّة تغيرت علاقتي بها.. شابت علاقتنا شائبة.. لأول مرّة ضربتني.. وقالت بنبرة حادة: وعي عليك رجال نقول عنك وأنت جذي.. أفا؛ والله أفا» ما زالت كلماتها تطن في أذني بعد هذه السنوات، ولكن كيف تخيلت بودرياه؟ ولماذا تخيلته؟ كانت أمي «العودة» تغوص بنا في لجج البحار والأعماق في تلك المآسي، كانت دون وعي تخلق لنا عالمًا من الرعب والدهشة في آن واحد.. ولأننا نعيش بالقرب من سيف البحر، ولأننا جزء من هذا الكائن الجميل، فقد التصقت بذاكرتنا كلّ الحكايات، وكانت دون وعي تجسد في حكاياها الصراع الأزلي بين الخير والشر.. تزيد وتزيد.. تخلق المواقف والمشاهد من العدم، وهكذا نتخيل في صبانا البكر.. شكل

بودرياه.. كان الوحيد الذي يرفض هذه الحكايات إبراهيم؛ كان يقول: أمي «العودة» كذابة، ولذا فقد حصد في نهاية المطاف علقة ساخنة، وعندها لعن بودرياه.. ولعنت في سري أيضًا بودرياه، لأنه وضع حدًا لعلاقتي الحميمة بجدتي؛ بودرياه كان السبب في إفساد علاقة الحب والود والعطف.. بيني وبينها.. سأشرح لكم الواقعة بالتفصيل الممل.

كنت نائمًا كعادتي في حضنها.. وكان الظلام دامسًا.. والصمت يغلف المكان.. تأوهت جدتي العودة. وأنفاس بعض إخوتي.. وسعال أبي من الغرفة الأخرى.. أبي العاشق الأزلي لكركرة «الكدو»، المهم... تحركت أبحث عن طريقي للخروج كي أمارس حقي الطبيعي..

كنت أعرف الطريق إلى «المستراح» وأنا مغمض العينين، تخطيت أولًا إخوتي.. فتحت الباب، كان الظلام دامسًا.. ولأن «السنون» قد غطى كلّ أجزاء «الفنر».. تابعت خطاي.. فجأة تسمرت؛ شاهدت عيونًا تنظر إلي... بوغِتُّ... حاولت أن أتحرك.. أن أعود.. أن أصرخ.. أن أهرب.. أن أفعل أي شيء.. ولكني انحصرت.. لا مهرب لي.. حاولت أن أدير رأسي فلم أستطع يا الله.. كانت أمي «العودة» تنتصر في كلّ نزاع بقراءة سورة يس، وأنا لا أعرف شيئًا. كان الشكل مخيفًا، وغريبًا في آن واحد: الرأس كبير والعيون جاحظة.. في حجم أعين البقر. والأنف لا أتذكر سوى فتحتيه، يخرج منهما هواء حار، أما الأذنان فهما في طول أذني الحمار.. أما الأصابع فطوال، في نهايتها مخالب مثل مخالب القط.. لا أدري كيف عدت إلى الخلف!! كلّ ما أذكره أنني تخطيت بعض إخوتي.. ودست على أقدام ورؤوس المبعثرين على الأرض.. من حسن حظي لم يتأوه أحدهم. وارتميت في حضنها.. وفعلت ما فعلت..

هذه الفعلة مع الأسف وضعت حدًا فاصلًا في علاقتي بها.. وأصبحت في نظرها مثل الآخرين.. وفقدت بعض امتيازاتي.. وعندما أقترب منها كانت تطردني برفق.. بحثت عن حضن آخر.. فليكن مثلًا حضن أمي، لكنها كانت مشغولة بأختي الصغيرة، وأصبحت مستسلمًا لواقعي الجديد. لم يطل الأمر فقد جد جديد.. سحبتني أمي مع إخوتي تدريجيًا من الغرفة التي كانت تحتلها، أو غرفة أمي العودة كما كان يحلو لنا أن نسميها.. حتى الآن لا أدري السبب، ولم يطرح أحدنا استفساره على أحد.. وقلَّت زيارة أولاد عمي لمنزلنا.. في بعض الليالي، كنت أنطلق إلى غرفتها، أتأملها وهي تتأوه.. هل بفعل فراقنا..؟ ولماذا لم تكن تستطيع النوم!! ولماذا تتحرك ببطء.. كانت أمي تكرر صباح مساء: لا تغربلون أمكم العودة؛ هل كانت أمي تعرف مرضها؟.. هل كانت تخشى علينا من علتها الأخيرة؟ لقد تحولت أمي العودة أسيرة.. تعيش وسط الجدران الأربعة.. أما نحن فقد أصبح عالمنا غرف أمي في برد الشتاء، أما في حر الصيف، فمكاننا المعهود.. الليوان.. والسطوح. ذات يوم عدت من المدرسة، وبي رغبة شديدة في الارتماء في حضن أمي العودة.. وجدت من حسن حظي البيت خاليًا من أمي، اندفعت إلى غرفتها تأملتها؛ كانت نائمة، ناديت عليها كعادتي «يما.. يما» لم ترد علي، انطلقت كعادتي القديمة إلى حضنها؛ كنت أمارس طقسي الأزلي.. آه كم كنت في شوق إلى هذا الحضن، لقد كنت جزءًا منه ذات يوم.. الحضن أصبح ملكي مرّة أخرى.. كعادتي سحبت يدها برفق، ووضعت رأسي على زَنْدِها ثم نمت.. لم أشعر بالبرودة.. ولا بصمتها، لم أستيقظ إلا على صرخات أمي وهي تولول؛ لماذا كانت تصرخ أمي؟ لا أدري.. أعرف أن أبي سحبني.. أما أمي فقد انهالت علي تضربني بكلتا يديها،.. أما أنا فلم أشعر ببرودة حضن أمي العودة.. حتى الآن..

هدى النعيمي

(في مخدعي أخرى)

د. هدى محمد عبداللطيف النعيمي

- كاتبة وقاصة وناقدة
- دكتوراه في الفيزياء الحيوية الطبية
- تكتب القصة القصيرة والمقالة في العديد من الصحف المحلية والعربية
- شاركت في العديد من الندوات والمؤتمرات الثقافية والأدبية محلياً وعربياً
- (2000 - 2004): عضو المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث
- عضو لجنة القصة والرواية بالمجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث
- عضو مجلس إدارة نادي الجسرة الثقافي
- (2008 إلى 2009): رئيس القسم الثقافي بجريدة الراية القطرية
- حصلت على جائزة الإبداع القصصي من نادي الجسرة الثقافي في قطر عن إصدارها الأول المكحلة
- تعمل حالياً مديراً تنفيذياً لإدارة الصحة المهنية والسلامة، مؤسسة حمد الطبية

صدر لها:

- «المكحلة» (مجموعة قصصية)
- «أنثى» (مجموعة قصصية)
- «عين ترى» (دراسة أدبية)
- أباطيل (مجموعة قصصية)

في مخدعي أخرى

لم يحدثني طلال بأمر ابنة عمه ومشروع الخطوبة المزمع إلا في أواخر العام الدراسي الأخير، وقبيل إعلان النتائج الجامعية التي ستعلننا أفرادًا مستقلين نستطيع الوقوف أمام أنهار العالم، لأننا أقوياء كالحجارة، لسنوات خمس كنت وطلال متلازمين كظلال؛ نكتب ما يمليه الأساتذة ثم نقارن المكتوب ونفاجأ أن لنا نفس الهوامش والتعليقات، ولم يكن لنا من تعليق أنه: أمر طبيعي. كلّ أولئك الذين تقاطعت طرقاتهم معنا في السنوات الخمس، ظنوا أننا سنعود إلى الوطن لنعلن أمر التقائنا الاجتماعي المقدس والأبدي، كان مألوفا أن نجلس في الكافتيريا المجاورة للكلية، وإن اختفينا فإن أحدهم لا يبحث كثيرًا، ولكن إشارة خبيثة لابد أن تخرج من أحدهم (Talal Must be with Maha)، وكنت أضحك كثيرًا على نطق اسمه بلغة أجنبية، وكثيرًا ما أشاكسه بقولي: «أنت تلال الوطن عندي»، ويرد المشاكسة بأخرى تشبهها: «مهما قلت فأنت لي»، وكنت أصدق قوله وأضحك فرحًا وخجلًا، لكنني لم أكن فرحة يوم قرر طلال إطلاعي على الحقيقة، وقبل أن نقرر العودة إلى الديار، لم أمارس الخجل حين

رفضت عرضه بالانتظار حتى يمر على زواجه من ابنة عمه بضعة شهور، يستطيع أن يتمرد خلالها على مسارتها الصغيرة ويستطيع أن يبرئ ساحته أمام العشيرة، لم أكن قادرة على احتمال فكرة أن أخرى تأتي لتجلس في المجلس الذي أنا فيه، أو أن تخلق الطقوس التي أعددتها سابقًا؛ رفضت نواياه الطيبة في إرضاء جميع الأطراف كما قال، ولم أصعد معه في ذات الطائرة، وحين عدت، عدت إلى بيت أبي وحيدة أبتغي دفئَه؛ فهو الذي لا أشك في حبه لي، وهو الذي لا تأخذه مني أخرى تبرق على حين غرة.

جاءت الأخبار تزف لي عن عرس طلال، وتحول مع الأيام التالية إلي شلال من الهم الأزرق الذي أدمنت السباحة فيه. لسنوات طويلة وأنا أرى أبي وحده الرجل الذي يستحق أن أحبه، رحلت والدتي في سنواتي الأولى فلم يشأ أن يدعو امرأة أخرى لصحبته، وصحبني لوحدي رغم إلحاح مستمر ممن يحيطون به، تسربت منه سنوات القوة، وكان يستمد قوته عندما يراني أكثر تماسكًا وأكثر قدرة على العطاء، أخشى أن أقول لنفسي أني قد خذلته حين اخترت أحمد شريكًا لحياتي.

كان أحمد متدفق المشاعر، دافئ الحب نابضًا دومًا في حديثه بما يشعر به، كان رئيسًا للَّجنة الوطنيّة التي انضممت إلى عضويتها، كان مبهرًا في حديثة وخبرته وإدارته للجلسات الساخنة، كان صاحب فطنة ملفتة للأنظار، ودراية بالصغائر المندسة بين السطور والورق الأبيض، أرهقني التفكر في الأستاذ أحمد ومحاولتي البدائية في تحليل جوانب من شخصيته المتداخلة، أرهقتني محاولة الغوص فيما وراء نظراته الصباحية «صباح الخير يا آنسة»؛ هناك معنًى ما وراء لهفته، وفي كلماته التالية، شموخًا واعتزازًا، طلب مني المذكرة المختصة

بالرأي القانوني في اجتماع الغد للضرورة؛ أغلق الخط دون أن يزيد حرفًا، لكنني ازددت له احترامًا وازدادت الفضاءات صهيلًا وأنهارًا، سنابل فرح من حيرتي تدفقت فوق الوسادة الخجول.

عام مضى والعمل المشترك في اللجنة شارف على الإنجاز، رغم محاولتي تأخير طباعة التقرير النهائي، لكنه يوم لابد أن يأتي، وقد أتى مهرولًا حين دعانا الأستاذ أحمد إلى غرفة الاجتماعات ليقدم لنا شكره وشكر الجهات العليا على الجهد المبذول في إعداد التقرير، وأنه– أحمدَ– يتمنى أن تتاح له الفرصة أن يتعاون مع مجموعة نشطة ومتفاعلة مثلنا، لكل منا طريقته بفعل نظرات يقذفها بذكاء، تسمرت حتى خرجوا واحدًا تلو الآخر.

– شكرًا سيدي، شكرًا أستاذ أحمد.

– مهلًا، آنسة مها.

– نعم.

– تعلمين أنني متزوج، ولديَّ ثلاثة أبناء، لكني أطلبك للزواج.

لم يكن عرضًا قابلًا للرفض هذه المرة؛ لم أكن أستطيع أن أملي على نفسي مثاليات لم أعد أحتريها لنفسي، رغم حزن أبي الذي بدا جليًا، قبلت عرض أحمد كي أكون المرأة الأخرى في حياته، وأن تبقى الأولى في بيتها وبين أولادها؛ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، قبلت أن أكون حبيبة وعاشقة لأحمد برضى اجتماعي يتراوح بين هذا وذاك، وما دام مسماي (زوجة) فلن أصنف سيئة، لكن زوجة أحمد التي ارتضت أن تبقى على حالها حرصًا على الأولاد عادت تطالب بالانسحاب الدائم

بعد ثلاثة أشهر من زواجنا؛ قالت إنها لا تتحمل أخرى مجاورة لسريرها، استشعرت فرحًا لذيذًا حين استجاب أحمد لطلبها، وأن قال لها «تبقين عظيمة»... استشعرت ندمًا صغيرًا على الفرح والرقص، عتبًا ونورًا لا أعرف من أين جاء، لكن زوجي قد جاء محملًا بي وحدي هاتفًا باسمى، ولا أسماء أخرى سواي، قد آن لي الأوان أن أكون فريدة بحب الرجل الذي أحببت، كأبي الذي لم يأت بصورة أنثوية تصادم وضع أمي الغائب، قد آن لي أن أطوف بحار زوجي ولا أخشى الجسور الفاصلة بين الموج والموج؛ فرحي الذي حاولت إخفاءه لم يستجب لطلب التستر، فظهر وازدهر وتمادى خلال عام وعام يتلوه، فلم أنجب ولم أسأل زوجي رغبته في طفولة أضعها بين يديه، اكتفيت بأنني الزوجة الأخيرة والتي لا تغيب، حتى بدأ أحمد في الغياب، هربًا من فرحي المتماهي في حزنه، والمبثوث بين عيون صغاره، تلك التي تحمله نظرات لوم وعتب؛ بدأ زوجي بالهرب، وبدأ في مناجاة الليل والسجائر في حديقة المنزل.

بدا أنه لا يريد وسادتي، بدأ زوجي في فك تلابيب الحصار الذي أحطته به، والذي ربما قد صار أكثر ضيقًا من العام الذي أعدَدْنا فيه التقرير، أردته عالمًا وثيرًا، ورودًا لا تنقطع عن الازدهار، وأرادني الراقدة في أعماق السر المكنون. كنت أقدم نفسي في كلّ المجتمعات «أنا زوجة أحمد»، وأحمد يمارس الانسحاب من دنياي، ظننت أن أطفاله، عالمه السحري هو ما يأخذه مني، ولم أغضب؛ فهم البدء الذي يعود، لكن الصوت الطفولي كان يطرق بابي «أين أبي»، ولا إجابة بين أصابعي، ولا إجابة بين أطراف عيني؛ أعرف انشغاله الدائم وحبه لعمله، لكن إحساسًا أنثويًا شديدًا أتى من حيث لا أدري، تداخل مع طيات ثيابي

وسكنات أنفاسي، راقبت طفولة أحمد التي أعرفها فلم أعرفها.. سألت النفس الأمارة بالبحث ولم ألق إجابة، وتيقنت أنه لا إجابة عن سؤال مبهم.

ربما الحل ألا نصل إلى حلول، المطلق هو ما لا نراه وهو أيضًا أحلى الأشياء. آمنت بصمت أحمد ولم أتطفل على لحظاته المتمردة على صحبتي، تركته يحاكي صمته وأشياءه الغالية وظللت أرقب والخوف نورسي الهائم وهواجسي تتعملق.

استوقفني ذات يوم ولم أرفع أكواب الشاي بعد

- مها.. أريد أن أحدثك بأمر لا أدري كيف تكون بدايته.

قلت وأنا أحس بكل ما فيَّ يتمزق:

- أعرف يا أحمد... هناك أخرى.

طرفة النعيمي

(الصمت الأول)

طرفة ناصر النعيمي:

- بكالوريوس تربية/تخصص رياضيات، جامعة قطر
- ماجستير في القيادة التربوية، جامعة قطر
- موظفة بإدارة البحوث والدراسات الثقافية بالمركز الثقافي للطفولة التابع للمجلس الأعلى للأسرة
- فاعلة مع مؤسسات المجتمع المختلفة في قضايا الطفولة
- تحمل العديد من شهادات الدورات والورش المهنية والفكرية منها:
- تنمية الباحثين الصغار
- ورشة البحث الإجرائي
- ورشة عمل مايكروسوفت

الصمت الأول

تشاجرن همسًا، أغلقن الباب بإحكام.. والصمت الذي ربطهن سنوات يصارع ليبقى، والخوف من أن يتناهى لسمع أحد المارة سرهن يقطع أوصال الكلام.. فيخرج عبارات مبتورة متألمة تحمل من الغيرة والغضب مايفك عرى صداقة بين ثلاث نسوة.. اجتمعن طالباتٍ في مدرسة صغيرة بقرية نائية.. جمعهن الصف الأخير والصمت المفروض، لم يتساءلن من فرضه لكثرة الفارضين.. كبر صمتهن كصديق رابع، وتقاسم معهن غرفة معلمات الصف الأول في المدرسة ذاتها حيث عدن إليها معلمات.. صمتهن الذي تواطأ مع الوهم والنظرات المختلسة البعيدة لحارس المدرسة كان يصنع من عبارات قصيرة وابتسامات مريبة يصنعها الحارس نحوهن قصص حب عظيمة، عشن يربينها بصمت.. وحارس المدرسة يقرأ رسائل بناته في وجوه معلمات الصف الأول كلّ صباح.. ويبتسم لهن حين ينسى أسماءهن.

تصارعن عليه، لعن الصمت جميعًا.. وأقسمت كلّ منهن أن تخبره، في حين كانت سيارته تهرب به بعيدًا بعد أن انطلقت صرخة شقت

القلوب عن الصمت فصرخ الجميع، جميع من في المدرسة.. انفجرت السماء ممطرة ودوى الرعد في كلّ مكان، كان ماءٌ عظيمٌ يأتي من كلّ اتجاه ولا يعرف أين يذهب..

اختلطت أصواتهن جميعًا دمعًا وأنينًا ونحيبًا يجرف كلّ الكلام الذي مضى وقته، فتصاعد في الهواء يبحث عن نفس وقد تلاصقت الأجساد خوفًا ثم تنافرت يبحث كلّ منها في اتجاه مختلف عن مخرج. كنَّ ثلاث نسوة حبستهن غرفة معلمات الصف الأول حين تدافع الجميع نحو الفناء.. جاء السيل غاضبًا فجرف معه الأبواب والنوافذ وكل مايمكن الاختباء خلفه.. في العراء كن يصارعن الموت وكل حديث تأخر.. والموت كان أكثر من موت.. الصوت والأمان والبقاء تصارعت على الحيلة.. يجرفهن الموت، تتلاقى الأيادي.. تتشابك ثم تنفض.. تتآزر الأصوات حينًا.. فتبدو كصوت نابع من جوف واحد.. ثم تتصارع؛ أيها يعلو على الآخر..

يسحبها السيل بعيدًا عن صديقتيها، تغيبان عن سمعها وبصرها وترتطم بباب غرفة الحارس قبل أن تسبح فيها، ينكسر أحد أضلاعها.. تتهاوى تحت الماء.. الماء يتصاعد داخل رئتيها وفوق رأسها ويسحبها نحو المجهول.. صوتها يهبط نحو الهاوية.. تفتح فمها وتغلقه.. تود لو تلقي بصوتها فوق الماء، وتتذكر معلمتها التي علمتها وصديقتيها الصمتَ.. تود لو عانقها...! أتسمعين صراخهن وبكاءهن؟ أما زلت تميزين أصوات الطالبات اللاتي علمتِهنَّ صمتهن الأول؟ أم تختلط عليك الأصوات الآن.. قريتنا الصغيرة تغرق.. هل سمعت صوت نورة مبحوحًا مجروحا مبتلًا بالدموع، أم سمعت صرخة مريم تمزق صدرها بحثًا عن مخرج، وأنا يعلو الصمت بداخلي ويعلو..

كان أشد ماتخشاه هو الغياب، أن تموت بعيدًا جدًا ولا يعلم أحد بذلك.. تتعلّق بالنافذة بشدة، يخيل إليها أنها تسمع صوت عمال الإنقاذ.. وبدا لها أنهم يقتربون من النافذة ذاتها التي تعلّقت هي بها من الداخل.. تفرح بالصوت تدرك أن فرصتها في النجاة أصبحت شبه معدومة بعد أن علاها المكان، ولكنها لاتشعر برغبة أن تخرج من صمتها، وإن كان للمرة الأولى والأخيرة، تشعر أنها لا تريد أن تموت قبل أن تخبر الآخرين بما يكتنفها.. تستجمع قواها وتجمع صوتها من صمت السنين الماضيات وتلقي به خارج النافذة لينجو.. أخبروهم أني أموت.. ويغمرها اطمئنان عميق لأن صوتها سيحيا بعدها.. تشعر أن بإمكانها الموت بهدوء.. ولكنَّ صوتًا من الخارج يجيبها «ونحن أيضًا نموت».

بشرى ناصر

(حدث ذات مرّة)

بشرى ناصر العبادي

- بكالوريوس لغة عربية من جامعة البصرة
- أشرفت على القسم الثقافي بجريدة (شباب اليوم) التابعة لجريدة الشرق
- عضو مجلس أمناء جائزة الدولة لأدب الأطفال التابعة للمجلس الأعلى للأسرة
- نشرت عدداً من الدراسات والأبحاث ذات الشأن الثقافي في عدد من الصحف الثقافية العربية
- قدمت برامج للمرأة والأسرة والطفل في الإذاعة
- كاتبة في عدد من الصحف المحلية والخليجية والعربية
- قدمت العديد من الورش الثقافية والمحاضرات حول الأدب والتأليف وكتابة القصة القصيرة في المدارس الحكومية والملتقيات الأدبية

صدر لها:

- مجموعة قصصية بعنوان (المجنونة)
- مجموعة قصصية بعنوان (ما جرى وكان لأم الغلمان)
- تباريح النوارس (نثر)

حدث ذات مرّة

(الإنسان في النهاية ليس إلاّ كومة من أسرار... وحقيقته ليست فيما يفعله، بل ما يخبئه).

خرجت من المتحف وحواسّي مشبّعة برائحة التاريخ الرطبة، أسير على غير هدًى، أتعمّد ترك نفسي هدفًا للشوارع الواسعة المزينة بأشجار (السرو) والنخيل التي راحت تبتلعني بشراسة.

ولا أدري كم مرّ علي من الوقت، أمشي فيه، لأتنقّل من المباني السامقة إلى البيوت الواطئة، لم أرد معرفة الزمن، ليس لأنني أتعمد تجاهله، وإنما لأن هدفي البحث عن شيء أجهله، فلطالما انشغلت بالبحث عن شيء ما يثير بداخلي لذة الاكتشاف، مهما كان تافهًا، قد تكون الدهشة هدفي، لا أدري؛ فالأمور التي تثير بداخلي الدهشة قد لا تعني غيري ولا تثير بداخله أدنى اهتمام، كمتعة النظر إلى شرفات الناس وقد امتدت حبال الغسيل، التي أراقبها باعتناء شديد في مقامرة من نوع ما، ومن طرف واحد، فأحاول معرفة ليس عدد سكان البيت-فحسب-وإنما ميولهم وأهواؤهم

وطباعهم، من خلال نمط وطريقة تعليقهم لملابسهم.

فالاهتمام بتفاصيل الآخرين الصغيرة يشغلني، وإلى حد كبير، عن الانشغال بمرارات هزائمي، ومعاركي الخاسرة، أو هكذا أدعي في محاولة لتبرير ذلك الفضول الكبير الذي يشاطرني تاريخي، والذي كان دائمًا ولا يزال وراء ارتياد المحال القديمة التي تبيع الملابس المستهلكة (البالات) والكتب القديمة المقروءة، ومحال الزجاجات الفارغة، أبحث فيها عن رائحة بشر تركوها معلّقة كما يترك الأبطال أو المهزومون أشياءهم في التاريخ، يغويني البحث عن شيء في أشياء الآخرين، أو بالأحرى البحث عن قطعة من أرواحهم تركوها غير عابئين بداخل مهملاتهم ونفاياتهم.

وهي ذات الدهشة التي أجنيها إذا ما أتيح لي رؤية السكارى الليليين، والصعاليك المشردين يلتقطون ما يلفظه المارّة من أعقاب السجائر، والعشاق المختبئين عن الأعين يسرقون قبلة أو لمسة يد تفتح لي المدى الواسع على قصص العشق المسروقة.

قد أكون في تعمّدي لرصد ذبذبات البيوت والبشر هذا أعوّض نفسي عن خساراتها، وفقدانها لألفة حميمة انتزعت منّي ذات يوم وقد انتزع معها جزء من روحي.

ومع ذلك، وحتى دون فلسفة للأمور أو تبرير غبي وساذج، فنحن في حقيقة الأمر غالبًا ما نترك أشياء مرّة أو حلوة في أشيائنا ونفاياتنا، أو نخلف هزائمنا وخرابنا وولهنا في الأمكنة والملابس وفي كلّ ما حولنا.

يداي في جيوب سترتي الصيفية الخفيفة لا ألوي على فعل شيء محدد،

من زقاق لآخر أسير حتى قادتني الدروب لزقاق طويل امتدت على طوله جداول مياه آسنة.

لأول وهلة يوحي إليك الزقاق بأن سكانه بالكاد يحصلون على لقمة عيشهم؛ فالطراز المعماري للبيوت القديمة عالية الجدران يؤكد فقر سكانها.

لغط وصخب وصراخ وأصوات تتعالى من وراء الشبابيك المفتوحة، امرأة تقف خلف النافذة تتطلع بتبرّم شديد كمن ينتظر اللحظة ليفجّر زلزال غضبه.

فيما بدت امرأة أخرى أكبر سنًا تصيح بصوت عال تنادي على ابنها الذي وقف يتبول في المياه الآسنة، بين مجموعة أطفال نصف عراة انغرست أرجلهم في الوحل، فجأة دونما سابق ترتيب، ولا زلت أتطلع للبيوت الساكنة رغم صخبها، امتدت الرؤوس من خلف النوافذ والأسيجة تتطلع لهذا الزائر الغريب، غير المرغوب بوجوده كما يبدو.

رفعت رأسي أنظر إليهن بابتسامة كعربون مودة، أو اعتذار ربما لتطفلي عليهم، فيما تسللت إلي رائحة أليفة، هي مزيج من طبيخ حار وروث أبقار وعفونة صنعتها رطوبة البيوت، فكرت بمتابعة سيري حتى آخر الزقاق لأجد لي مخرجًا كي لا أثير استياء أهل الحي أكثر، خاصّة وقد بدت علائم التجهم والاستغراب بادية على وجوه النسوة ولغط الأطفال الذين تفوّه بعضهم بألفاظ بذيئة، شعرت بالخجل والإحراج حين علّقت إحدى الرؤوس المطلة من فوق:

- ياه.... هذي يبيّن جاية تصورنا... يمكن صحفية...

فأنزلت آلة التصوير خاصتي دسستها في حقيبة يدي؛ فهنا أناس يعيشون بقناعة مشتركة، يغمسون لقمتهم بالتضامن والمحبة حتى لتصير وليمة فوق سطح العالم، خجلت من نفسي حتى خلت إبطَيَّ يَنِزّان بالتعرق، لا يمكن معرفة مشاعر كهذه ما لم تجرّبها بنفسك؛ فها أنا ذا أقف اليوم في موقف من يسرق من هؤلاء البشر سكينتهم وتعوّدهم وقناعاتهم بتسللي إليهم، لذا حثثت خطاي لأهرب منهم ومن أعينهم التي اخترقت ظهري وأشعر بها تجلدني، أسعفتني لافتة صغيرة مهترئة، بالكاد تبيّنت ما كتب عليها وبخط رديء (حمّام العافية)، عُلِّقَتْ بخيط من الخيش على بيت قديم واطئ ومتهالك أشبه بقبر.

تأملت البيت وتَلَفَّتُّ حولي، هل ثَمَّةَ علاقة أو ارتباط بين هذا المكان، وبين الحكاية الشعبية المشتعلة بالغرابة، والتي طالما سمعتها في طفولتي؟

تدور حكاية الطفولة التي نسيت معظم تفاصيلها في فضاء حمّام نسائي عام، واسم الحكاية (حمام العليل) فهل أطلق على هذا الحمّام ذات الاسم الذي حملته الحكاية الشعبية، أم أن السردية الشعبية قد خرجت ذات يوم من هذا المكان؟

لا تتوقعوا أن أتناسى شأن ذلك المكان وأكمل سيري، دون الانقياد وبشكل جنوني وراء إلحاح الفضول، ولكن ما أدراني أن بداخل هذا المكان أناس يستحمّون فعلًا، قد يكون بيتًا مسكونًا بالجن والأشباح- ما أدراني-تلفّت ورائي علّني أسمع من هؤلاء الناس ما يعزز شكوكي ومخاوفي فيثنيني عن عزمي أو العكس، إلاّ أن شيئًا من هذا لم يحدث،

فقد ظل الصبية نصف العراة يتلفظون بألفاظهم النابية فيما أرجلهم مغروسة في الوحل.

وكأنما هنالك قوة سحرية غامضة ظلّت تجرّني إلى الدخول، أشبه بمغناطيس هائل كلما قرأت العبارة المعلّقة، سرعان ما ازدادت هذه القوة السحرية فاعلية لتجذبني وبشدة نحو الولوج لهذا العالم، مهما كلفني الأمر.

دفعت الباب الخشبي المتهالك لأجد سلّمًا يقود نحو الأسفل، درجات متهدمة صغيرة من طابوق متآكل تدفع بك نحو مزيد من الظلمة كلما انحدرت للأسفل.

نزلت ليواجهني باب آخر، دفعته بوجل وتردد، لا أنكر أن دقّات قلبي قد تحوّلت إلى دقّات منتظمة على طبل ما عدت أسمع غيرها.

أي مكان هذا الذي بني ليكون منخفضًا كسرداب، ثم لو افترضنا أنه (حمّام سوق) كما يقولون، ما أدراني أنه للنساء وليس للرجال؟

بيد أني سرعان ما أقنعت نفسي، لو كان هذا المكان قد خصص للرجال لما احتمل كلّ هذه الدهاليز والسلالم والظلمة والسريّة، فعري الذكور يلاقي قبولًا بنحو ما، إن لم أقل إنه عري فاضح احتفالي.

وقفت أمام الباب الموارب أصفّق بيدي علّ أحدًا ما يسمعني فيحسم الأمر، لكن شيئًا من هذا لم يحدث، صفقت ثانية وثالثة، قبل أن أدفع بالباب قليلًا لينفتح على امرأة سمينة، مترهلة يجللها السواد، تنفَّسْت الصُّعَدَاء، وشعرت بانتصار لا أعرف مبرره.

بيد أن المرأة السمينة التي بدت أشبه بساحرات القصص، قد أفزعتني بحضورها المفاجئ أمامي، حتى شعرت برعدة تسري في مفاصلي؛ أنفها كبير، وخيّل إلي أنه معقوف أشبه بأنف الساحرات، كان ضوء الشاحب البرتقالي الصادر عن المصباح المتدلي من أعلى يعكس بظلاله الشاحبة على وجه المرأة أكثر مما يعكسها على المكان، خيّل إلي أن المرأة قد خرجت إليّ من سرديات أمي الشعبية عندما كنّا لا نقوى بعد انتهاء الحكاية من مغادرة فرشنا، رغم أن مثانتنا تكاد تنفجر، خوفًا من مواجهة أعين كعيني هذي المرأة تخرج علينا من الزوايا والثقوب كما الصراصير.

بصوت يخرج من قرار عميق، قالت بهدوء: نعم؟

- أريد أن أجرب..... قلت بشجاعة مفتعلة.

فقهقهت بصوت مرتفع، دَوَّى له المكان، بينما كنت أزرع نظرتي في الوشم الخرافي في ذقنها.

اختفت، أو ابتلعتها الظلمة، ثم سرعان ما ظهرت حاملة منشفة وصابونة (رقّي) وليفة، قبل أن أمدّ يدي لتناول الأدوات التي ستجعل من يومي يومًا تاريخيًا عظيمًا، قالت بضيق خلق وتضجر: التسعيرة عندنا أربعة دنانير، عدا ثمن (الليفة) والصابون... كلّ شيء بثمنه طبعا.

فقلت ببرود الأموات: طبعًا، ونقدتها المبلغ.

حملت عدة الحمام ومضيت خلفها مترددة خائفة أستعيد قهقهتها فترتعد أوصالي، قادتني لممر ضيق ثم لآخر حتى انتهينا لباب خشبي

كبير دفعته فهجم البخار والسخونة، فيما تعالت صيحات وصخب نساء يتمازحن، مما أعاد لي بعضًا من رباطة جأشي فمدني بالطمأنينة.

اكتنفت الظلمة والدفء المكان، كما بدت الرؤية للوهلة الأولى صعبة لكني تآلفت معها، فنزعت سترتي الصيفية وجلست على دكة إسمنتية أستعيد مزاجي المرح.

إلى جواري تدحرجت ثلاث برتقالات من كيس ورقي، وتمدد طفل يمتص غذاءه من قنينة مياه غازية استخدمت (كرضاعة) لكن عري النساء عصر روحي وقبض قلبي، لماذا دخلت هذا المكان؟ أي جنون قاد خطوتي؟

لكن رائحة الصابون وقرقعة الطاسات النحاسية، وطرطقة القباقيب وصنابير المياه الساخنة والأحواض الإسمنتية والبخار جذبتني بشدة رغمًا عني إلى هشة لا تحققها إلاّ حكايات أمي.

نادت إحدى النسوة: يلّا.... تعالي.

لقد جازفت كثيرًا في انقيادي وراء رغبة عارمة للمغامرة، وقد تحققت هذه المغامرة، فهل يفترض بي الآن خلع ملابسي كلها والانضمام لقطيع العرايا أو احتفالية العري الجماعي هذه؟

شعرت بالخزي والعار، فما اعتدت يوما الاستحمام إلاّ في حمامي الخاص، فضلًا عن أن حوض الحمام الذي أستخدمه لا أتذكر يومًا أنه كان عاريًا بلا ستارة تحجبني عن الحمام ذاته.

أية علاقة تربطني بنسوة جئن يغتسلن بعد أسبوع شاق ومضنٍ،

وعرائس قرويات جديدات حلمن بحمام السوق مثلي لكن على نحو مغاير، وأخريات يتهيأن لليلة الجمعة؛ ما أدراك ما ليلة الجمعة بالنسبة للشرقيات؟!

تقدّمت نحوي فتاة لم تكمل السادسة عشرة من عمرها، جلست أمامي فيما بدأت تخرط الماء عن شعرها بمشط خشبي وتنثر مياه جدائلها في وجهي، تشاغلت بفك قلادتي تحاشيًا للنظر لعريها ولعورتها، التي بدت غير آبهة بمعالم أنوثتها المتفتحة توًا، ألف سؤال دار برأسي حول القيود التي تفرضها المدنية على الجسد.

سألتها بود: متزوجة؟

فردت بخجل: من شهرين... ثم أكملت: يعني عروس.

فقلت: المرأة في بلادنا تظل عروسًا حتى تضع أول طفل.

كل مرّة أتعهّد أمام نفسي بعدم الانسياق وراء كسر الحواجز مع الغرباء، فأعجز عن تحقيق ذلك لأجني نتائج وعواقب وخيمة، وها هي ذي الفتاة الصغيرة تؤكد لي هزيمتي تجاه نفسي لعدم الوفاء بعهدي؛ إذ سرعان ما تمادت لتمد يدها فتخمش قلادتي فتتفحصها بجرأة متناهية.

صاحت امرأة كبيرة: تعالي أما يغريك البخار؟

أعادت أخريات ذات النداء، بَدَوْنَ ودودات للغاية.

فاستجمعت شجاعتي وتغلّبت على خجلي وعقدي، ونزلت إليهن بعدما تخلصت من تنورتي وقميصي بالقرب من حقيبتي على

الدكة الإسمنتية.

تربعت إلى جوارهن، معي أدوات الحمام، لكن رغبتي بالبخار والماء الساخن تلاشت حين انهالت سياط أعينهن تأكل جسدي تمامًا كما كنت أتفرس في تمثال (أنانا-عشتار) في المتحف الذي خرجت منه، قالت واحدة: نادي المدلكة تليّن عظامك.... وقالت أخرى: ماشاء الله تبارك فيما خلق، وقالت ثالثة: والله عشنا وشفنا بنات المدينة يستحين.... وأيدتها رابعة: إي والله صدقت... ما رأيت أحدًا يستحم بهدومه، تشاغلت عنهن بسكب الماء على شعري.

مغمضة العينين تملأ وجهي رغوة الصابون، عندما شعرت بدبيب جسد إلى جواري، فارتعدت أوصالي... فتحت عينيَّ لأجد جسد امرأة سمينة منفتحًا على العري بقربي.. زحفت واقتربت أكثر مني حتى بدا وجهها قريبًا مدورًا مغسولًا بعينين ضيقتين لتفُحَّ في وجهي: من أين؟

قلت: ماذا؟ وابتعدت قليلا عنها.

قالت: السوتيان... الله ما أجمله!... أكيد من بره؟

قلت لنفسي ما الذي قادني لهذا القطيع من النساء العرايا؟ وأي جنون أن أشترك في حفل التفاهة هذا؟

هناك في بلادي كنت أستاء من أولئك الذين يمضغون (التنباك)، ويلفظونه بصاقا على الطرقات وبشكل علني جارح، في الحقيقة كنت أشعر بالقرف والغثيان، كما كنت أنزعج جدًا من برنامج (حول العالم) وأتمنى لو أملك الجرأة للاتصال بالمذيعة ومعاتبتها على إثارة مشاعرنا بمشاهد الأوبئة والدمار والجوع... والآن وقد قادتني

خطوتي لشيء أجهله؛ فما يثير الحنق والغضب أكثر من بصق التنباك ومشاهد الرعب هو: أن أتحول إلى موضوع تتلهى به النساء، ومادة تشغلهن عن حمامهن؛ فقد أحطن بي من كلّ صوب... إحداهن افتضت قشرة برتقالة بأظافرها السميكة وقدمتها لي عربون محبة، فيما أبدت إحداهن دهشتها من ساعتي التي لا تتأثر بالماء، وعلّقت ثالثة: أن المستورد دائمًا أفضل؛ فطلاء الأظافر المحلي لا يلبث أن يتقشر.

حاولت الانتهاء من هذا كله بسرعة لأنجو بنفسي، فأعدو خارجًا خاصّة وقد انبرت العروس الجديدة تغني أغنية حسية بصوت شجي.. وعلى إيقاع الطوس وانطلقت أخرى مترهلة تتمايل عارية...

لا طاقة بي لاحتمال كلّ هذا، خاصّة ولم يسبق لي مشاركة النساء بأي نوع من الاحتفاليات، لذا تركتهن في موجة الأنس والطرب ورحت أنشف شعري، وأحيط جسدي بالمنشفة.

هتفت إحداهن بصوت عال: كررّيها.

و هتفت أخرى: إذا جئت في المرّة القادمة تخلّصي من ملابسك كلها.

لازال الطفل يمتص غذاءه غافيًا، ولا تزال البرتقالات تتدحرج من الكيس، لكن أمتعتي لا وجود لها... حقيبة يدي والكاميرا وتنورتي وقميصي...

التفت في كلّ الجهات باحثة، ثم توجهّت نحو امرأة الحكايات السمينة أسألها.

فادعّت عدم معرفتها بشيء.

عدت أبحث من جديد فأدور بين الصنابير والأحواض، قبل أن أصرخ بكل صوتي:

لقد سرقت.....

أحاطت العاريات بي من كلّ جانب، فيما توسّلت لروحي ألَّا تنهار.

خبطت إحداهن على صدرها صائحة: يا ويلي!... وهل في الحقيبة نقود كثيرة؟

قلت: كلّ شيء كلّ شيء... جواز سفري والكاميرا وأشياء كثيرة تعني هويتي.

دمدمت العروس: يا الله حتى ملابسك اختفت.

وكأني أكتشف توًا صعوبة الموقف... فانفجرت باكية.

ربتت العروس على كتفي مؤازرة: سأعطيك ثوبًا من عندي

ومع تعالي الصياح والاحتجاج وثورتي دخلت المرأة الأشبه بالساحرات... فقلت بمرارة: أنتم لصوص سرقتم حاجياتي...فأزبدت وأرعدت: كيف؟ سرقنا حا.....؟

قلت: ماذا سأفعل... كيف سأخرج؟ ثم كيف سأعود لوطني؟

قالت وهي تهتز: نحن نعمل هنا منذ ثلاثين عامًا... محلنا له سُمعته؛ ألا يكفي أننا نخلصكم من وساختكم؟

قلت: أرجوك افعلي شيئًا... اتصلي بالشرطة.

ثم حزمت أمري فقلت: لن أخرج من هنا دون استرجاع حاجياتي.

فلم تبالِ... لوّت شفتيها، ودمدمت بهدوء: نحن لا نعرف السرقة.

بكيت وتوسلت وبحرقة شديدة... لم يفلح معها شيء، ولما أنذرتها بإخطار رجال الأمن بدت كمن قرصها عقرب... انتفضت... أرعدت وأزبدت وصارت كالغول وانهالت بحمى هستيرية على وجهي لطمًا.

وجدتني أعدو في الزقاق منهارة، روحي معصورة، بملابس فلاحة قروية.. دفعت بي للخارج بعدما بصقت صائحة: الغرباء دائمًا لا يجلبون غير المتاعب.

لولوة خلف البنعلي

(في قريتنا ذئاب)

لولوة خلف البنعلي

- قاصة وكاتبة مقالات اجتماعية في جريدتي الشرق والراية وبعض المواقع الإخبارية والأدبية القطرية والخليجية
- حصلت على المركز الأول في مسابقة القصة القصيرة التي أقامها المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث عام2006م
- حضرت عدة دورات عن فن كتابة الرواية والقصة القصيرة في قطر

صدر لها:

- (2009): مجموعة قصصية بعنوان (عباءة أمي)

في قريتنا ذئاب

تطل الشمس من نافذتها السماوية الواسعة على القرية الصغيرة، المتدلية من سفح الجبل، في ذيل هذا الشتاء الطويل الذي يئس الجميع من انتهائه، في طرف القرية كوخ بنيت بعض حجراته من طابوق المدينة الأحمر وبعضها من خشب تهرّأ مع تعاقب السنين عليه، توقظنا أمي للذهاب للمدرسة باكرًا على غير عادتها، صوتها العالي يصك مسامعنا حيث أنام أنا وأختي الصغيرة في زاوية إحدى الغرف، تصيح فينا من وسط المطبخ، من أمام إناء الماء الساخن المعلّق فوق النار، تتصاعد منه الأبخرة وتتجمع في سقف الكوخ الخشبي، مكونة حاجزًا ضبابيًا يخفي عيوب السقف المتآكل:

(هيا انهضوا بسرعة... الحافلة لن تأتي، هناك انهيار لصخور الجبل سد مدخل القرية).

أجلس في السرير بكسل، وما زالت عيناي مغمضتين، تنتابني رعشة برد سريعة، أتساءل في داخلي كيف عرفت أمي خبر الانهيار، أبي لم يعد منذ خروجه بالأمس مع أخي (صالح) لبيع محصول العدس في

قرية (كلباء) المجاورة، أمر أمي عجيب، في كلّ مرّة تعرف ما يدور في قريتنا قبل الجميع، يخيل إلي أنها تعرف قبل العمدة (حمدان) ورجاله، نهضت أسوق قدمي خارج السرير في اتجاه الحمام، أؤكد لنفسي أن أمي تعرف كلّ ما يجري في القرية بطريقة ما سحرية، ربما من موقدها وقدرها المعلّق طوال اليوم أمامها.

أمشط شعري وأنا خائفة من الذهاب للمدرسة بدون أخي (صالح)؛ فقد اعتدت أنا وأختي أن نذهب معه في كلّ مرّة تتعطل الحافلة أو تسد دروب القرية، ما أكثر ما حدثت هذه الانهيارات في هذا الشتاء!.. يفرح الناس في القرية بالمطر؛ ماذا يجلب لنا غير الانهيارات وسد الطرق والمشي مسافات طويلة حتى نصل إلى المدرسة أو أقرب حانوت لشراء بعض السكر أو قطع الجبن؟ لم أكمل كأس الحليب الساخن، قضمة واحدة من الرغيف اكتفت بها معدتي المضطربة من البرد، ربما لم يكن من البرد؛ فقد تملكني الخوف من الذهاب للمدرسة بدون أخي (صالح)، جررت حقيبتي بيد ومددت يدي الأخرى لأمسك بها يد أختي الصغيرة.

استوقفتنا أمي قبل الخروج تتأكد من ملابسنا، وجهها جامد دائمًا، لا تعابير نستشف منها ما إذا كانت حزينة أم سعيدة، تحاول إرخاء الشال الصوفي على جسمي لتغطي براعم أنثوية نبتت حديثًا على تضاريس طفولتي، زودتنا بأكياس تحتوي على وجباتنا التي سنتناولها في فسحة المدرسة، أخيرًا وقبل السماح لنا بالذهاب أطلقت تحذيراتها الصارمة، قالتها بتمهل وعيناها تزداد اتساعًا مع ارتفاع حاجبيها، بصوت هامس مبحوح، (احذروا ذئاب الطريق)، تومئ برأسها بتمهل وكأنني أتفق معها وأفهم ما تقصده ولا أحتاج منها إلى

توضيح عن تلك الذئاب، وفي أي طريق توجد.

زاد خوفي على نفسي وعلى أختي الصغيرة، مرت رغبة عابرة في البقاء بالمنزل، وعدم الذهاب إلى المدرسة، سرعان ما طردتها، فلا مناص من التوجه للمدرسة، لن تقبل أمي غيابنا عن المدرسة لأي سبب.

قبل الانطلاق أخذت نفسًا عميقًا أملأ رئتي من الهواء الدافئ المتواضع داخل كوخنا الصغير لأستقبل هذا الصباح المثلج، في الخارج كانت الشمس باردة، خلف سحب وغيوم تنذر بمواصلة بلل الطرقات والدروب، ومزيد من الانهيارات، الرائحة المنبعثة من الحشائش المبللة في الصباح غمرتني بنشوة غريبة وطاقة عظيمة لأبدأ المسير، نترك آثار أحذيتنا خلفنا أنا وأختي على الأرض الطينية اللزجة ونحن نمشي بحذر خشية الوقوع أو الغوص في برك الماء الصغيرة المتجمعة من سقوط الأمطار، وعيناي لا تستقران، أبحث في كلّ اتجاه عن ذئب مختبئ أو أي أثر له، نَغُذّ الخطى بحذر في اتجاه ذاك الطريق الطويل المنحدر الممتد من سفح الجبل إلى حيث المدرسة في نهاية القرية، نقطعه حينًا بتعليقات مفككة نتسلى بمشاهدة الدخان الأبيض يخرج من أفواهنا، ونقطعه حينًا آخر بصمت وعيوننا على الأرض نتأمل الورود الصغيرة المتناثرة، نبتت في أطراف الممر الطيني لتحمي حياتها القصيرة كقصر فصل الربيع الجميل ولتنجو من وَطْءِ أقدام البشر والدواب فوقها.

يتردد صوت أمي الهامس وتحذيراتها في رأسي (احذروا ذئاب الطريق) ونحن نمر من أمام كوخ أقرب جارة لنا (أم علي) وأتخيل وجهها وأضراسها التي تتقلقل كلما فتحت فمها لتتحدث، كان باب كوخها مفتوحًا على مصراعيه كعادتها دائمًا لتراقب الرائح والغادي في

الطريق، لا تبالي بهبات الهواء الباردة المداعبة لستارة بابها الرقيقة المخرمة، دجاجاتها السمينات يلتقطن الحب من الأرض الرخوة بسعادة، زدت خطواتي سرعة وأنا أشد على يد أختي لتجاري سرعتي حتى لا تقع عينا (أم علي) علينا، باءت محاولتي بالفشل؛ إذ سرعان ما اكتشفت وجودنا ولاحقتنا بصوت عال تطلب منا التوقف، لحقت بنا تخف السير، كانت خطواتها ثقيلة متمايلة، بدا طرف سروالها الظاهر من تحت ثوبها الشتوي يغط في برك مياه الأمطار، وصلت لنا وقد أنهكتها تلك الخطوات القليلة، تفرغ ما كانت تضمه بين يديها في أيدينا، حبات فستق زهرية اللون، كانت تلهث وهي تسألنا عن سبب ذهابنا للمدرسة مشيًا على الأقدام، أخبرها بالانهيارات التي حدثت، تفاجأ بالخبر، لقد ذهب ابنها (علي) للعمل منذ الفجر، من أخبر أمكم؟ لا أدري؛ أكان السؤال موجهًا لنا أم لنفسها تسألها في حيرة! ابتسمت ونحن نتحرك لنكمل مسيرنا وتركنا سؤالها معلّقًا فلا نملك إجابته، فلتفكر(أم علي) ما شاء الله لها أن تفكر؛ فأمي امرأة مباركة.

نكمل طريقنا ونحن نأكل لب الفستق بشهية، نرى تواصل خيوط الدخان المتصاعدة من الأكواخ المتناثرة على سفح الجبل مع سحب السماء، بدا لي أن كلّ تلك السحب الرمادية التي أراها وقد ازدحمت بها السماء تكونت من دخان الأكواخ المتصاعد، أسراب حمام ما إن يتجلى وجه الشمس في السماء حتى تبدأ في استعراض ألوان ريشها المضيء فينقلب الأبيض أسود والأسود أبيض تحت شعاع الشمس المتقطع.

الصمت يسود المكان الآن، لا نسمع غير تردد لهاثنا أنا وأختي الصغيرة، نَئِنُّ من طول الطريق وتحت ثقل الحقائب المدرسية على ظهرينا.

بدأ الطريق ينحدر أكثر، ولاح لنا حانوت (عم سالم) مستعرض الطريق منذ بدايته، وحماره الهزيل مستسلم لقيده؛ حيث ربط بعامود خلف الحانوت، أستطلع المكان بنظراتي قبل اقترابنا ومرورنا من أمام بابه، كرات أطفال ملونة معلّقة، ومكانس من القش منتصبة على الجانبين، لا أثر لأكياس الفحم العملاقة حيث يضعها في الخارج دائمًا، ننجح في المرور دون أن نرى (عم سالم) أو أيًا من زبائنه المبكرين، نحث الخطى، يدًا بيد، وقدم مستعجلة تسبق قدمًا حذرة، ورؤوس تتلفت، وعيون تدور، تبحث عن ذئاب مختبئة، كيف سنعرف الذئب إن صادفناه، لم أَرَ ذئبًا من قبل، سمعت مرّة صوت عوائه عندما ذهبت مع أبي وأخي (صالح) لنبحث عن جملنا الشارد في الغابة البعيدة، يقول أخي صالح: إنه يشبه الكلب كثيرًا.

نواصل سيرنا المنحدر وكأن أياديَ خفية تدفعنا من الخلف، صوت حفيف أجنحة الفراشات يملأ المكان، بدأت الفراشات تخرج من شرنقاتها المعلّقة على أغصان أشجار تعبت من حمل أوراقها طوال السنة، فصارت شبه عارية، تنوء بثقل الشرانق، فجأة نتداخل مع قطيع من الخرفان يقطع الطريق باتجاه أفقي، يسوقه أمامه راعي القرية الوحيد (شماس)، يضرب بعصاه الأرض من حين إلى آخر حتى يحدد مسار القطيع، يتبعه أخوه المعتوه (حامد) يلاحقه كظله، تباطأ في السير وهو ينظر إلينا بنظرات فارغة، تغوص أيدينا في صوف الحملان الصغيرة التي كانت تحاول اللحاق بأمهاتها في نهاية القطيع، نكمل سيرنا بعد مرور القطيع وصوت ثغائها تمتصه الغيوم الرمادية من فوقنا ولم يتبقَّ غير آثار حوافرها وبعض عناقيد أرواثها المتناثرة.

بدأت حبات مطر صغيرة باردة تسقط علينا عندما مررنا بالمقهى

حيث يجلس أشياخ القرية؛ كلّ من ليس له عمل في القرية يجلس هنا، يتناولون المشروبات الساخنة، وربما يتناول البعض الطعام، كراسي القش الموزعة في داخل المقهى وخارجه خالية، غير تلك التي يجلس عليها ثلاثة شيوخ باسترخاء، يشربون الشاي بفناجيل شفافة يلمع الشاي الذهبي بداخلها، وقعت عيناي على عم (همام) وهو ينظر إلي ويفتل شاربه مبتسمًا، لا أدري لم طابقت صورته في ذهني بصورة الذئب، ينبئني شيء بداخلي لا أعرف مصدره أن هذا الرجل ذئب وهو ما قصدته أمي بتحذيرها، ضغطت على يد أختي الصغيرة أبحث عن أمان يهدئ ضربات قلبي التي تتسارع وكادت تنزلق يد أختي من يدي بسبب عرقي الشديد رغم البرودة التي تلف المكان، خوف شديد اعتراني وأنا أرى عم (همام) مثبتًا نظراته علي ويداعب بأصابعه الصفراء اليابسة شاربه الأبيض، يعض على شفته السفلى ومازالت نظراته تذكرني بنظرات حيوان عجوز جائع، سحبت أختي بعنف وبدأنا بالجري، لم أفكر بالطرق المبلولة ولا باحتمال سقوطنا واتساخ ملابسنا بالطين، عم (همام) أراه مع أبي وأخي (صالح) وقت جني المحاصيل يساعدهما في عملهما، كانت أمي إذا علمت بوجود (همام) معهما، تمنعنا من الذهاب للحقل لإيصال طعام الغداء لأبي ولأخي (صالح)، تنتظر حتى يأتي أخي صالح ليستفسر عن سبب تأخر الطعام فتحمله أمي حافظة الطعام ذات الطبقات المعدنية ولا تتعب نفسها عناء شرح الأسباب ولا أظن أن أخي (صالح) ينتظر إجابة.

بدأت أنفاسنا تعود لهدوئها وقد غاب المقهى ومن فيه وراء ظهورنا، وتباطأت خطواتنا، وارتخت أيدينا، نظرت إلى أختي الصغيرة وقد سعدت بعودة خطواتنا الهادئة إلى سيرنا، رفعت رأسها وبادلتني

النظرات بابتسامة ساحرة وكأننا نهنئ أنفسنا على النجاة من هذا الذئب، انتقلت نظراتها إلى سرب من العصافير الصفراء الصغيرة حط على أغصان شجرة قريبة منا ينفض عن ريشه الأصفر قطرات المطر.

لم يتبقَّ من الطريق سوى هذه الغابة الصغيرة نقطعها لنصل إلى مدرستنا، روائح الخشب الرطب المشتعل تفوح في أدغال الجبال، وصوت طيور قريبة يتردد في الفضاء، واصلنا السير، ولِنَطْرُدَ الخوف من نفوسنا أخذنا نردد أغنية شعبية سمعناها من مسجلة يملكها أبي، يسندها معه على الكرسي الطويل، تحت شجرة الليمون، في أمسيات فصل الصيف اللطيفة، يسمع ويطرب وهو ينفث آهات الإعجاب مع كلّ زفرة يخرج بها دخان النارجيلة من بين شفتيه، تصل مسامعنا تلك الأغاني ممزوجة بروائح زهور الليمون المتفتحة ودخان النارجيلة.

ظهر أخيرًا مبنى المدرسة الأبيض، وقد كان في الأصل مبنى دائرة الشرطة، وبعد انتقالهم للمبنى الجديد تم تحويل هذا المبنى إلى مدرسة منفصلة للبنات، وقد كان في السابق يُدَرَّسُ للبنات والأولاد في مدرسة واحدة، الهدوء يسيطر على المبنى من الخارج، والبوابة الخارجية مغلقة، أين جموع الفتيات اللاتي يلعبن نط الحبل، ويتنازعن على الأرجوحة الوحيدة المصنوعة من إطار سيارة علّقت بحبل بأغصان الشجرة الكبيرة، أين الفتيات الصغيرات اللاتي يلعبن ويتراكضن في انتظار سماع صوت الجرس ليدخلن مسرعات إلى حجراتهن الدراسية، تقدمنا بخطوات سريعة نحو بوابة المدرسة، يطل علينا (صابر) حارس المدرسة من حجرته وبعينيه نظرة استغراب من رؤيتنا أنا وأختي، تتحول تلك النظرات أمامنا، يسيل لعابه، أصبحت نظراته نفس تلك النظرة التي شاهدتها في عيني عم (همام)، نظرات ذئبية

كريهة، يتلفت يمينًا وشمالاً ليتأكد من خلو الطريق وهو يحاول دفعنا لدخول حجرة الحراسة، أمسك بيد أختي الصغيرة وأسحبها مسرعة وأنا أحاول إثارة أكبر جلبة ممكنة، أصبح تحذير أمي الآن صوتًا عاليًا يدق في رأسي كصوت مدق الهاون الذي تدق به أمي الحبوب، رمينا الحقائب على الأرض، وجرينا بأقصى ما نستطيع، لقد نسيت أمي ونسيت أنا أن اليوم يوم عطلة.

جمال فايز

(يوم العيد)

جمال فايز السعيد

- (1988): بكالوريوس جغرافيا وتخطيط، جامعة قطر
- رئيس قسم الأنشطة الثقافية بإدارة الأنشطة والفعاليات الشبابية بوزارة الثقافة والفنون والتراث
- منح العضوية الشرفية من نادي الجسرة الثقافي الاجتماعي
- عضو اللجنة التأسيسية بالجمعية القطرية للكتاب والأدباء
- ترجمت أعماله القصصية إلى اللغات الإنجليزية والسويدية والروسية والفرنسية
- أعدت بعض من أعماله القصصية لسلسلة إذاعية بعنوان (قصص خليجية)

صدر له:

- (1991): سارة والجراد
- (1997): الرقص على حافة الجرح
- (2003): الرحيل والميلاد
- (2008): عندما يبتسم الحزن

يوم العيد

(1)

لأول مرّة يخرج من بيته، ولا ينظر للنخلة التي غرس فسيلتها جده الأول، ورعاها أبناؤه وأحفاده، واستطعم ثمرها سنين عديدة، إلا من بضعة أعوام مضت؛ إذ عادت لا تطرح ثمرًا، فتعاظم حزنه، واشتد ألمه، ولم يفقد الأمل. ظل يرعاها ويمنحها معظم وقته، إلا هذه الليلة؛ فالوقت أمامه قصير، وعليه شراء حاجات كثيرة، أهمها الفواكه؛ فأكثر من الرمان الذي كان يحبه ابنه، ومن التفاح الذي كانت تفضله ابنته، ومن الحلوى و«الرهش» (1)، وأمضى ليلته ينظف مجلسه، ويعد المائدة.

(2)

على غير عادته، نهض من على فراشه، أيقظ خادمه، ثم رجع إلى غرفته، تعطر، لبس ثيابًا جديدة، وخرج مزهوا يتكئ على عصا جده.

(3)

في مصلى العيد جلس في نفس المكان الذي كان يذهب إليه منذ صغره مع والده وجده تفرس في الوجوه القادمة، وفي وجوه الجالسين عن يمينه ويساره، يبادره القاعدون بالتهنئة، ويسأله آخرون عن سر الشجن الذي يكسو وجهه.

اكتظ المكان بالمصلين، نهض الحشد للصلاة، فعل مثلهم، بدأ الإمام في إلقاء خطبة العيد، وظل ينظر من حين لآخر، في وجوه الجالسين، لعله يجد ناسه.

بدأ الناس في الخروج من المصلى، تشبث في مكانه، يحملق في الوجوه، تنتابه الرغبة في العويل، وهو يتفرس في المارين أمامه حتى رآهم ورأوه، ترقرقت الدموع في عينيه، همّ إليهم، لكنهم.. واصلوا المشي خارجين من المسجد.. يحدث بعضهم بعضًا.

(4)

رجع إلي بيته، يتملكه الحزن، لامست أذنه جذع النخلة، ضربه بقبضة يده، اقشعر بدنه، انتابه إحساس ضاعف من حزنه، ضربه ثانية وثالثة ورابعة.. صدق حدسه في أن الجذع أجوف، وتمتم: «حسبي الله ونعم الوكيل».

(5)

وحده أمام المائدة، على غير هدى، يقطع بيدين مرتعشتين من الرمان

والتفاح، وبعنف يغرس السكين في الحلوى والرهش، دخل عليه خادمه، مسح دمعة التمعت على خده. تنحنح خادمه: «بابا.. أنا واجد فيه تعبان، بابا يروح ينام ولّا يوقف علشان إنتَ؟» ولم يرد، ظل لوقت يمعن النظر في المائدة، قبل أن يشير إليه بأن يقترب، ويجلس بمحاذاته، ويشاركه في طعامه.

دلال خليفة

(الخيل وفضاءات البنفسج)

دلال خليفة

- كاتبة روائية وقاصة
- بكالوريوس في التربية، تخصص لغة إنجليزية
- ماجستير في ترجمة اللغة الإنجليزية، بريطانيا
- ترجمت روايتها (دنيانا) إلى اللغة الإنجليزية بدعم من المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث
- أشرفت على القسم الإنجليزي بمجلة (مأثورات شعبية)؛ حيث كان يصدرها مركز التراث الشعبي
- كتبت مقالات للصحف والمجلات المحلية والخليجية
شاركت في عدد من الندوات والملتقيات الثقافية محلياً وخليجياً وعربياً
- (2005): جائزة الدولة التشجيعية في مجال الأدب عن مجموعة (أنا الياسمينة البيضاء)

صدر لها :

- (1992): إنسان في حيز الوجود (مجموعة مسرحية)
- (1993): أسطورة الإنسان والبحيرة (رواية)
- (1994): أشجار البراري البعيدة (رواية)
- (1995): من البحار القديم إليك (رواية)
- (2000): دنيانا مهرجان الأيام والليالي (رواية)
- (2002): أنا الياسمينة البيضاء (قصص قصيرة)
- (2004): التفاحة تصرخ، الخبز يتعرى، (مجموعة مسرحية)
- (2007): عوالم صغيرة (حكايات)
- (2008-2009) الخيل وفضاءات البنفسج (قصص قصيرة)

الخيل وفضاءات البنفسج

الكون حلمٌ بنفسجيُّ اللون؛ الموسيقى لها طعمٌ مختلف، والخيل تصهل من بعيدٍ أمام شلالات الماء المتحدّر من الأعالي الخفية، مضفيةً مع الأطياف البنفسجية المنسكبة على المكان جوًا آسرًا وحشيّ الجمال. عمّا قريبٍ ستظهر قوافل الخيل في الجوّ جاريةً بين السحب؛ الصهيل البعيد يوحي بذلك، العيون متجهةٌ إلى الأعلى تنظر إلى السماء انتظارًا لقوافل الخيل، ولكنّ الخيول عندما تظهر في الجوّ أخيرًا تبزُغ واحدًا واحدًا محدثةً فرقعة كبيرة مع كلٍ منها، ثم ما تلبث أن تتبدد وتتساقط في أضواءٍ مرحة، الكل يشهق إعجابًا وسرورًا؛ لم ير أحد عرسًا مثل هذا.

أمام المرآة ابتسمت بنفسج لنفسها؛ إنها جميلة كالزهرة التي استعير لها اسمها، اللمسات الأخيرة تجعلها كحلم زهرة بنفسج، بياض ثوبها به طيفٌ هامسٌ من اللون البنفسجي، وإكليلها ياسمينٌ وبنفسج. وعندما تذهب إلى الفناء الذي اجتمعت فيه المدعوات فسيكون ذلك حلمًا يوشك أن يتحقق، وسيكون اكتمال تحققه دخول الرجل الوسيم الذي اختارته زوجًا على ظهر الحصان.

كانت تلك فكرة أحدهم لحفل زواجه بها، ومع أنها تخلصت منه إلا أنها نفّذت الفكرة بحذافيرها في حفل زفافها للرجل الآخر الذي اختارته، لأنها استهوتها إلى أبعد مدى؛ ذلك أنها جسّدت كلّ ما تحبه في هذه الدنيا وكل ما يكوّن شخصيتها التي عُرفت بها؛ فاسمها الذي تفخر بأن أباها ابتكره لها، والذي لابد أن يكون قد ألقى عليها بعضًا من ظلاله، من العدل أن يبرز بشكلٍ ما في ليلتها هذه، أما الخيول فغرامها الأكبر الذي ورثته عن أمها وأبيها، وما زال أبوها يحب في بعض جلساته المسترخية على كرسّيه المفضل أمام التلفاز أن يروي قصّة إعجابه بأمها عندما رآها أول مرّة في سباق خيلٍ في الكويت؛ فلم يعد إلى الدوحة إلا بها، ولم يهدأ له بال حتى أصبحت تشاركه حب الخيل.

ابتسمت ثانيةً وهي تتخيل دخول زوجها فناء منزلها الرحب على ظهر «أحلام»، الفرس الطيبة؛ لقد كان الخيار الأول «رهيب» حصانها المفضل، ولكن رجُلها هذا يخشى المغامرة، وقد قبل أن يدخل بهذا الشكل على مضضٍ فقط من أجل عدم إفساد الليلة، حتى إنه حذرها من أنه قد يضطر إلى إعطاء الفرس بعض المهدئات أو إدخال كومار السائس معه ممسكًا بجزءٍ من زمامها تحسبًا لأيّ شيء. يؤسفها أنه ليس مفتونًا بالخيل مثلها، ومن ثمّ فهو لم يتعلم ركوب الخيل يومًا، ولا يأمن على نفسه فوق ظهر حصانٍ إلا وهو تحت سيطرة سائسه. ولكنها تحبه بكل صفاته، والحب كعادته الأزلية يحوّل كلّ نقيصةٍ في الحبيب إلى شيءٍ عذبٍ لا يزيد المحب إلا هيامًا وجنونًا.

قلبها يدقّ؛ إذ اقتربت لحظة خروجها إلى مكان الاحتفال حيث ينتظر الجميع في شوقٍ وفضول. تعدل لها صديقتها المقرّبة من وضع الإكليل فوق شعرها الحريري المتماوج، ولم يبق إلا أن تخرج للناس ببهجتها

وابتسامتها الساحرة، الموسيقى بالخارج تتغيّر إشعارًا بقرب خروجها ويعلو الصهيل من خلف خرير الماء و... يرنّ هاتفها فجأة..

خادمتها تخبرها أن لها هديّةً أحضرها أحدهم وهو يصرّ على أن تصلها الآن. حسنًا، لا بأس. تستطيع أن ترجئ الخروج دقيقةً أخرى. تتنهد الصديقة ضيقًا.

ليس هذا وقت هدايا؛ الناس ينتظرون خروجك بفارغ الصبر.

دقيقة واحدة فقط يا نور؛ أرجوك افتحي الباب لجولي، لا أستطيع المشي سريعًا بهذا الثوب.

جولي تناول نور علبةً معدنيةً قديمةً مربوطةً بشريط هدايا فتتساءل بنفسج:

من الذي أرسلها؟

أحضرها... مستر راشد، مدام.

تلتفت نور سريعًا إذ سمعت الاسم.

بنفسج، لا تستلميها.

تدفع بالهدية إلى الخادمة ثانيةً.

أعيديها إليه. هل ما زال هنا؟

تلتفت بنفسج إلى الخادمة بدهشتها.

هل أحضرها بنفسه يا جولي؟

نعم، مدام.. ولكنه ذهب الآن.

تهبّ بنفسج واقفةً، وتمشي رافعةً ذيل ثوبها لتصل سريعًا وتستلم الهدية إلا أن يدي نور كانتا أسرع منها في اختطاف العلبة، فتتضايق بنفسج.

أعطيني إياها من فضلك!

بنفسج، إنك خطيبة رجلٍ آخر الآن، بل زوجته! انتهى زمن راشد، ثم إن منظرها لا يبشّر بالخير.

تهرب الخادمة من الجوّ المتوتّر، وتغلق الباب خلفها بهدوءٍ، تاركةً بنفسج تحاول انتزاع الهدية من يدي صديقتها.

نور، ثقي بي؛ فهذا هو الرجل الذي أريد، هو الرجل الذي لا أرى غيره بين الرجال. لو كنت أريد راشدا ما تركته من أجل فهد، هل تفهمين ذلك؟ أعطيني العلبة. فقط أريد أن أرى ما بها.

العلبة خفيفة جدًا، كأنها فارغة، وفراغها يثير فضول بنفسج لأمدٍ قصّرته أصابعها؛ إذ راحت تفكّ الشريط في الحال ما إن عادت إلى مكانها أمام المرآة. العلبة فارغةٌ فعلًا إلا من رسالة. وتتوسل نور:

أرجوك لا تقرئيها؛ ليس الآن... أشعر أنها..

«بنفسج، كنت اليوم أحاول أن أشغل نفسي عن موضوع زواجك؛ قضيت اليوم كلّه في الإسطبل، لأنني مثلك، لا أهرع إلا للخيول في وقت أفراحي وأتراحي؛ كنت أشعر بالغيظ الشديد وبأسوأ المشاعر التي يمكن أن تتخيليها لما فعلته بي، ويزيد من غيظي أنني لا أستطيع أن

أعبّر لك عنه، وفي لحظةٍ ما جعلني كلّ هذا الغضب المسيطر عليّ أشعر برغبةٍ جامحةٍ في أن أرسل إليك شيئًا بهذه المناسبة يعبر عن رأيي فيها وفيك أنت وذلك الأبله؛ هل تعلمين ماذا أردت أن أرسل لك؟ شعرت برغبةٍ جامحةٍ في أن أقدّم لك مخلّفات الفرس التي كانت تمشي أمامي في تلك اللحظات؛ أردت إرسالها في هذه العلبة لأنها تمامًا ما تستحقه مناسبة زواجك بهذا الخسيس، ولكني رغم كلّ محاولاتي أن أجبر نفسي على فعل ذلك إلا أنني لم أستطع أن أفعلها، لأن ذوقي مع الأسف أرفع من أن يسمح لي بذلك، لذا أكتفي بإرسال هذه العلبة الفارغة التي كان يفترض أن تحتوي على ذلك الشيء الذي لا يوجد في الدنيا ما هو أقدر منه على التعبير عن شعوري في هذه اللحظات تجاه زيجتك هذه، وتجاهكما معًا، تاركًا لخيالك تصوّر ما أردت أن أقول بواسطته.

ملاحظة: هل أخبرتني مرّةً أن زوجك الثاني (أو ربما الأول) كان أسوأ اختياراتك؟ أعتقد أنك أصبحت بحاجةٍ إلى تحديث هذه المعلومة!

راشد».

وقفت بنفسج مصدومةً مذهولةً بعد هذه الكلمات، فاستلّت نور الرسالة من بين أناملها ومزّقتها وألقت بها وبالعلبة في سلّة المهملات.

رجلٌ مقزّز! ألم أقل لك لا تقرئيها؟ انظري إلى نفسك الآن!

أخذت بنفسج تكفكف دموعها وتحاول أن تتوقف عن البكاء الذي خرج عن سيطرتها وارتجف له جسمها.

بنفسج، أرجوك! لا وقت لهذا الآن. اغسلي وجهك ولنُعد وضع زينتك. هل تريدين أن تفسدي حفل زفافك، أن تحقّقي له ما أراد؟!

الحقير. كيف يقول إنني لا أستحق إلا...

ليقل ما يريد! هل كنت تتخيلين أنه سيرسل لك باقة وردٍ بعد أن تركته من أجل شخصٍ آخر، خاصّةً إن كان هذا الآخر أكثر وسامةً منه؟ المهم الآن هو أن تنسي كلّ شيءٍ إلا زفافك؛ زوجك سيأتي بعد قليل، لا تضطريه إلى الانتظار في الخارج؛ تعلمين كم سيكون قلقًا وهو ينتظر فوق ظهر الفرس.

الحقير! الحقير! المجرم؛ هل لاحظت كيف أنه يريد أن يدسّ لي السمّ في كلّ كلمة؟ هل لاحظت كيف أنهى رسالته؟

التفتت كلّ الأنظار إليها وهي تمشي الهوينا بثوبها المنتقى بعناية وبكل شيءٍ جميلٍ فيها، تتناثر في طريقها أوراق الأزهار والريحان والزغاريد.. إلا أن هناك شيئًا قد انطفأ بعد تلك الهدية.

...

على رمال الشاطئ الرطبة جلستا؛ نور ترسم دوائر على الرمل وتكتب كلماتٍ بلا معنى، وبنفسج تصنع مجسماتٍ رملية، ترفع نور عينيها عن الرمل.

أليس هناك أيّ أمل؟

تهز بنفسج رأسها نفيًا، وتصمت نور؛ قد تكون هي الإنسان الوحيد في العالم الذي يعلم أن بنفسج معذورةٌ هذه المرة في تصميمها على الطلاق بعد عامين فقط، لأنها تعلم كم أحبت ذلك الرجل وكم كابرت لتحافظ على صورته لديها ولدى الآخرين، وكم ناضلت من أجل

الحفاظ على زيجتها هذه، لذا فهي تشعر أنه من الأفضل لها أن تنهي هذه الزيجة السقيمة رغم حفل الزفاف الأسطوري الذي بدأت به؛ لقد رأت صديقتها تتحول إلى إنسانٍ آخر ذوبانًا في الرجل الذي أحبته، ومن أجل الحفاظ عليه وعلى زواجها به، رغم خياناته التي حاولت التستر عليها بعد فشلها في مقاومتها حتى انكشفت لكل الناس، فبات التستر عليها لا يورث إلا المذلة، وأصبحت هي في كلّ هذا البؤس الذي لا تكاد تحتمله؛ الانكسار لا يناسبها، لا يناسبها إلا القوة والمرح؛ جمالها في وقوفها مرفوعة الرأس كالمهرة.

كنت أعتلي ظهر الخيل كلّ يومٍ تقريبًا، فأجد نفسي في عالمٍ لي وحدي.. فضاء خاص بي لا يحدني فيه شيء.. هناك عوالم كثيرة قد يحلق فيها الإنسان وحده ولا يستطيع وصفها للآخرين.. مثل ذلك العالم الخلفيِّ، الغامض أحيانًا والبرّاق أحيانًا أخرى، والذي لا يظهر إلا في مرايا السيارة... المباني المتقهقرة.. وتلك العيون العملاقة المضيئة التي تجري من خلفي في الظلام، الجميلة أحيانًا والمرعبة أحيانًا، أو البلهاء أو المضحكة في أحيانٍ أخرى.. هل خطر على بال أحدٍ أن مصابيح السيارات السارية خلفك قد تضحكك في الظلام وأنت في طريق العودة إلى المنزل؟

ترسل بنفسج بصرها بعيدًا بعيدًا، وكأنها تحاول استيعاب الكون بكل أسراره وألغازه.

إنني أفتقد فضاءاتي..

كل فضاءاتي الرحبة التي تخلّيت عنها من أجله..

وعندما استيقظت من غفوتي، إذ أدركت أنني لا أعني له شيئًا وأحببت أن أعود لعالمي، إذا بي أجده قد أعدّ العدّة ليغتصبه مني..

وكل هذا بعد حبي الهائل له..!؟!

إنه لا يستحقني!

أشعر أنه قد فاز بسيارةٍ فخمةٍ ذات إمكاناتٍ هائلةٍ في لعبة حظٍّ، فركنها في المرآب لا ليحتفظ بها لنفسه بأنانية المحبّ كما كنت أظن.. وإنما ليبيعها وقت الحاجة..

.. وبقيتُ في المرآب أسعَد سعادةً ساذجةً بمجرّد تلبية أوامره واجتناب نواهيه، حتى حان موعد بيعي مراهنًا على تقديري لذاتي...

شمس العصر أخذت تزداد عذوبةً؛ إذ اختفى وهجها فأصبحت قرصًا وديعًا من النور..وتستأنف بنفسج بناء أشياءٍ من الرمال الرطبة تنتزع منها ابتسامةً شاحبة.

هل تذكرين عندما كنا نبني بيوتًا من الرمل ونحن صغيرتان؟ لا أعلم لماذا كان ما أبنيه يتهدّم دائمًا بعد قليلٍ، وما تبنينه أنت يظلّ قائمًا إلى أن يهدمه أحد.. هل تظنّين أن ذلك كان يرمز لحياتنا المستقبلية؟ ففي النهاية أصبحتُ كلّما كوّنتُ حياةً أسريةً انهارت، أما أنت فقد كونتِ حياةً أسريةً واحدةً قويةً وصامدة؛ أكبر أولادك أصبح في الثانوية وأنا ما زلت أتحيّن الفرصة المناسبة للإنجاب. لم أشعر قط مع أيٍّ من الثلاثة الذين تزوجتهم بأنني وصلت إلى الاستقرار الذي يمكن معه توفير حياةٍ مستقرةٍ لطفل.

لا لا يا عزيزتي؛ لا علاقة للعِبنا ونحن في سن الطفولة بحياتنا الحالية. فقط كنتِ أكثر طموحًا مني؛ كنتُ أنا أبني بيوتًا صغيرةً متواضعةً لا ترتفع عن الأرض كثيرًا، أما أنتِ فكنت دائمًا تحاولين بناء قصورٍ وقلاعٍ جميلة، والرمال عندما تعلو لا تصمد كثيرًا؛ هذا كلّ ما في الأمر.

وحتى هذا يرمز إلى شيءٍ ما؛ لقد كنتِ أكثر واقعية مني.

وتبتسم نور.

بل أقلّ مهارة؛ لقد كنتُ أعجب بطموحك، وأعجب بما تبنين. صدّقيني بنفسج، كنتِ تبنين أشياء جميلة، وإن كنتُ آنذاك أزعم أن بيوتي أجمل؛ كنت أحب ما تبنين حقًا، وكنتُ أحب أن أغافلك وأنظر إليها مليًّا وأتأمّل تفاصيلها.

حاولت بنفسج حمل شفتيها على الابتسام فلم تحظ إلا بشبه ابتسامةٍ وهي تجيب صديقتها:

هذا قبل أن تقع وتنطمس هي وتفاصيلها.

وتمر الريح خفيفةً تتلهّى بملابس بنفسج وتخرج خصلاتٍ من شعرها من تحت خمارها إذ تُحوّل بصرها ثانيةً إلى الأفق.

وما زالت كلّ قصوري تنهار.. الواحد تلو الآخر...

بنفسج، أرجوك؛ لماذا كلّ هذه الكآبة؟ هل أنتِ آسفةٌ عليه إلى هذا الحدّ؟ لم أرك يومًا في مثل هذه الحالة.

وتلوذ بنفسج بالأفق مرّةً أخرى؛ الشمس تنحني مودّعةً وتسدل ستار

الختام البرتقاليّ على النهار، والتصفيق يأتي من الأمواج القادمة من بعيد.

هناك شيءٌ لم أخبر به أحدًا..

نور كلها آذانٌ قلقة.

لقد.. كان بيننا شرط جزائي في عقد الزواج.

ماذا؟ لم أسمع بشيءٍ كهذا من قبل؛ كيف؟

كنت مفتونةً به، وكنت أظنّ أنه يحبّني حقًا.. لذلك، عندما قال لي إنه يخشى ألا آخذ زواجي به بما يكفي من الجدّية فأتخلى عنه ببساطة، وإنه يريد من ثمّ أن يُضمّن عقد زواجنا شرطًا جزائيًا وافقت على الفور لطمأنته..

شهقت نور وغطّت وجهها بيديها مشفقةً على نفسها من الصدمة، واستأنفت بنفسج.

شعرتُ أن من حقّه أن يطمئنّ لأني تزوجت مرتين من قبله من ناحية.. ومن ناحيةٍ أخرى.. لم أستوعب الأمر تمامًا وظننت أن ذلك نوعٌ من المزاح.. على أية حال، كان الشرط أن يحصل على مزرعة خيولي.. إذا طلبت أنا الانفصال.

من بين أدمع نور:

كيف فعلت ذلك بنفسك؛ لماذا لم تتشاوري معي أو مع أبيك رحمه الله أو أخيك؟

حتى لو تشاورت؛ صدّقيني كنت في النهاية سأحقّق له ما يريد، كنت مجنونةً به، نور، ألا تستوعبين ذلك؟ وكنت حقًا أظنّ أنه نوعٌ من المزاح كما أخبرتك، لأنه أخبرني، أو بالأحرى أوهمني أنه يغار من الخيول لأنها تستحوذ على جلّ اهتمامي.. آنذاك بدا كلّ شيءٍ مفهومًا ومنطقيًا إلى حدٍّ ما..الآن فقط أدركت أنه اشترط الحصول عليها بالذات وليس على مبلغٍ من المال، من أجل هدفٍ معيّن.. إنه يريد ألا يتركني إلا حطامًا.

تنهدت نور واختنق صوت بنفسج.

ليت أبي لم يمنحني إياها عندما تزوجت زوجي الأول؛ ما يدمي قلبي هو شعوري بأنني لم أكن أهلًا لثقة أبي.. لقد كان يحبها وكان يريدها أن تبقى معنا إلى نهاية حياتنا، لذلك قدّم الشركة لأخي وترك لي المزرعة لأنه يعلم أنني أحبها على عكس أخي، ويثق بأني سأحافظ عليها... ليته تركها لأخي مع الشركة؛ أشعر أنني ارتكبت حماقةً لا تغتفر... لو كان أبي حيًا الآن ما استطعت النظر إلى وجهه..

والآن لا شيء يعفيني من ذلك الشرط؛ لقد ظننت أنه، وإن اشترط ذلك، فهو لن يكون من الوضاعة بحيث يسلبني إياها إذا ما آلت الأمور إلى ما آلت إليه، إلا أنه الآن يؤكد أنه لن يتنازل عنها إذا تركته، ويؤكد أنه لن يترك لي حصانًا واحدًا مع أنه يكره الخيول.. فإما أن أقبَله هو وفضائحه وأساليبه الملتوية بكل خنوعٍ وإما أن أخسر كلّ شيء..

ومع ذلك فسأتركه.. سأخلعه كما يُخلع الثوب الملوث..

ولكني لن أرمي به في سلة الغسيل، بل سأرمي به إلى حيث اللاعودة..

لا أستطيع العيش بلا خيولي.. وكذلك لا أستطيع العيش بلا كرامة،

ومادمتُ لابد مُفاضلة بينهما فإني أعتذر للخيول..

من هذه التي تعتذر للخيول؛ هل هذه هي النهاية؟ تحدق نور في وجه صديقتها، الفتاة الصغيرة التي لم تتجاوز الحادية عشرة من عمرها والتي دخلت إلى فصلها مع المدرِّسة طالبةً جديدةً، بعينيها الواسعتين وشعرها الكستنائيّ الضارب إلى السواد والمتساقط على جبهتها وكتفيها بتموجاته المرحة، فتجنبتها كلّ الطالبات؛ كم هي مخيفةٌ بجمالها وذكائها وثقتها بنفسها؛ كشأن المدلّلات دائمًا، وظلت الفتيات بعيداتٍ عنها إلى أن جربت نور الاقتراب منها يومًا، فوجدتها فتاةً طيبةً ومرحة؛ في قلبها أماكن شاغرة لكثيرٍ من الصديقات الجديدات، لو كن يعلمن.

هل يشعر الرجال بهذا النوع من الغيرة تجاه زوجاتهم؟ هل تخيفهم قوتهن وإن كانت مسخرةً لهم؟ أم ما الذي يجعله يسعى لتحطيمها؟ تظل نور مكتوفة اليدين ولا يبقى لديها إلا محاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه من روح بنفسج المرحة بنصيحةٍ ما. ولكن بنفسج تتجاهل نصيحتها ومحاولة إغرائها بالذهاب إلى المزرعة ورؤية خيولها وممارسة رياضتها المفضلة علّها تخرج من تلك الكآبة، بل وتنزرع «حوافرها» في المكان كالفرس عندما ترفض الحركة، لأنها تزعم أنها فقدت الرغبة في كلّ شيء، وكرهت كلّ شيء، وعادت لا تريد إلا أن تتخلّص من ذلك الرجل بأيّ ثمن.

...

مع أن الأيام تبدو وكأنها لا تتحرك عندما تأتي وسط أحداثٍ صعبةٍ إلا أنها تفعل، لذلك فقد استيقظت بنفسج ذات صباحٍ وأعدت نفسها للذهاب إلى المحكمة مع أخيها لأبيها لتعيش قمة مأساتها. لم تكن تعلم

أن نقل ملكية أهم ممتلكاتها لشخصٍ تشعر تجاهه بالمرارة، وتجريدها من حقّ التصرّف في أيٍّ من الموجودات في مزرعتها سيكون له كلّ هذا الوقع على نفسها؛ كانت تريد أن تصرخ في وجه القاضي وتتّهمه بالجنون، كيف ينتزع منها مزرعتها التي شهدت خطواتها الطفولية الأولى ويقدمها إلى شخصٍ يكرهها ولا يؤتمن على حبة رملٍ فيها؟ إلا أنها استطاعت السيطرة على نفسها واكتفت باختلاس النظر إلى القاضي بطرف إحدى عينيها كالفرس الغاضبة، وظلّت جالسةً بصمتٍ إلى جانب أخيها الذي لا يكاد يراها ولا تكاد تراه إلا في الطوارئ. وفي لحظاتٍ بعينها شعرت أنها ستسقط مغشيًا عليها إلا أنها صمدت حتى عادت إلى المنزل.

كان رعب ذلك اليوم من بطولة فهد؛ تذكرت في ذلك اليوم الكئيب أنه قال مرّةً إنه يؤيّد أن يبيع مُلاك الخيول المسنّة في بعض الدول لحومها إلى مصانع أطعمة القطط، ليس هنا في هذا الخليج الجميل مثل هذه المصانع فيما تعلم، ولكنه قد يفعل أيّ شيءٍ بمبروكة، الجدّة الكبرى لمعظم الخيول لديها؛ لقد تقوّس ظهرها كثيرًا وعادت لا تصلح لأي شيء... سيراها بعقليّته التّجارية عبئًا ثقيلًا، ومن يعلم ماذا سيفعل بها. أما رهيب الفتيّ فمن المؤكّد أنه سيبيعه هو وبنفسج الصغرى لعشاق سباقات الخيل مع كلّ ما من شأنه أن يباع بثمنٍ جيد. شعرت بالظلم الشديد؛ كيف يهينها ويدفعها دفعًا إلى تطليقه ثم يستلب أهمّ ما تملك... ما العقلية الشيطانية التي أدخلت الشروط الجزائية في عقود الزواج... ثم (ما لِما يحدث بين البشر من مشاحناتٍ وما للخيول؟ ما ذنب الخيول!)

هناك دائمًا صهيلٌ يأتي من بعيد.. من مكانٍ خرافيّ البعد والوجود

يأتي.. وهناك دائمًا أطياف خيولٍ بريةٍ تجري.. منذ الأزل تجري.. قصتها بدأت في الأزمان السحيقة.. ترى هل أطل الحصانان من الفُلك فشاهدا الطوفان العظيم يأتي أمواجًا كالجبال تبتلع العالم؟ لا أحد يعلم. ثم عندما غيض الماء لابدّ أن الحصانين ركضا بعيدًا واستقرّا في البراري البعيدة عن الإنسان، وعاشا هناك ردحًا من الزمان حتى أصبحا قطعانًا تلهو هنا وهناك، بلا أَلْجِمة، بلا سروج، بلا أزِمَّة.. بلا حدود..

وظلت الخيل عصورًا وعصورًا سعيدةً بوحشيتها.. عصورٌ وعصورٌ وهي تتراكض حيث شاءت وتنتشر قطعانها هنا وهناك، تجمّل البراري بتناسقها البديع، بلمعان شعرها المتساقط كالشلال تحت ضوء الشمس على أعناقها الحرّة، بعيونها الواسعة، بخطواتها الرشيقة في المياه الصافية، بشموخها الآسر، إلى أن استأنسها الإنسان.. وعندئذٍ وُلدت الفروسية.

وحده الجبان من يكره الخيل.. والجبان عند بنفسج هو الذي اكتشفت اليوم أن لا موقعَ له في مسيرة الخيل عبر الأزمنة، ولا موقع له في قائمة محبي الخيل..

في كوب القهوة الذي حاولت شربه رأت ما سيعيث فهد من فسادٍ في مزرعتها، وفي كلّ مكعّبٍ من مكعّبات الثلج التي أخذت تستخرجها من قالبها لتضعها في كأس العصير كان وجه فهد يضحك بسرورٍ وشماتة، وما إن يرتطم بالعصير حتى يحتفل مع واحدة من عشيقاته بانتصاره عليها. تركت كلّ شيءٍ وألقت بنفسها على السرير وأغمضت عينيها فرأته من تحت جفنيها يدخل المزرعة بسماسرته ليبيعها ذرةً ذرة،

واستمرت تتابع تلك السيناريوهات المأساوية حتى خشيت على نفسها من الانهيار. أخذت تطرد كلّ الأفكار من ذهنها وتحاول النوم فتعجز. وعندما تعجز ترى نور أمامها.

أنصحك ثانيةً وعاشرةً بأن تذهبي إلى مزرعتك وتستمتعي بها لتسرّي عن نفسك قليلًا. لن يستلمها أو حتى يقترب منها إلا بعد ثلاثة أشهرٍ كما قالوا لك في المحكمة.

لا يا نور؛ لا أستطيع ذلك، لن أستمتع بها وأنا أعلم أنها ستنتزع مني، ثم إني يجب أن أحاول التأقلم على الحياة بدونها؛ إذ إن محاولات الاستئناف قد لا تجدي؛ ليس لديّ مقدرةٌ على إنشاء مزرعةٍ أخرى ولو بعد عشرين سنة.. لذلك لن أذهب إليها إلا قبل موعد التسليم بأيامٍ لأودّعها وأودّع الخيول.. وكومار وبقية العاملين هناك.. و.. ستأتين معي؟!

تشعر نور بأنها ستقضي يومًا كئيبًا آخر من أيام بنفسج الكئيبة فتتنهد؛ هل سينتهي هذا الجاثوم يومًا؟

هل تصدقين أن راشدا كثيرًا ما حذّرني منه عندما بدأت أتعامل معه من أجل أعمال الصيانة بالمزرعة؟ تعرفين أن راشدا مهندس، وقد بهرت بشخصيته عندما علمت أنه أيضًا مهتمٌ بالخيول ولديه مزرعة وخيول، وشعرت أنه يناسبني لهذا تجاوبت مع اهتمامه وانجذابه الهائل نحوي وقبلت خطبته، ولكن عندما جاء فهد للعمل تغير كلّ شيء.. غضب راشد كثيرًا عندما لاحظ أني مهتمةٌ بهذا الجديد قليلًا وقال إنه يشك في سبب تقرّبه مني، وإن ثمة منافسة تاريخية تدور بينهما عرف من خلالها أيّ نوعٍ من الرجال هو.. ولكني لم أصدّق كلمةً مما قال؛ كنت

مفتونةً بفهد.. حتى جاء اليوم الذي خيّرني فيه راشد بين الاستمرار معه كخطيبة أو مواصلة التعامل مع فهد، فاخترت مواصلة التعامل مع فهد متظاهرةً بأن الغضب من موقفه كان دافعي لهذا الاختبار، إلا أنني كنت قد بدأت أميل إلى فهد، بعدها أحببته.. إلى درجة.. إلى درجة الشرط الجزائي.

تغمض عينيها وتنكس رأسها.

لن أنسى يومًا نبرة صوت راشد المحبطة وهو يؤنبني على التفريط فيه؛ لقد كان يحبني حقًا؛ أرأيت ثيمة زفافي؟ لقد كانت فكرته، وعندما أتذكر الآن كيف اهتم بكل تفصيلٍ خاصٍ بي أستغربُ من مقدار محبته لي..

لا تنظري إليّ هكذا.. لقد سمحت لنفسي بأن أنفّذ فكرته لزفافي بغيره لأني أعلم أنه لن ينفّذها أبدًا مع غيري، ولأنه استوحاها أصلًا من سماتي؛ إنني الفارسة الوحيدة التي يعرفها كما كان يقول، والمرأة الوحيدة التي يعرفها بهذا الاسم... بدليل أنه عندما تزوّج بعدي بأشهرٍ أقام حفل زفافٍ عاديًا..

نعم تزوج، أما علمتِ بذلك؟ ولا أعلم لماذا انفصل عن زوجته بعد أقلّ من عامٍ كما سمعت.. لعله كان فقط يريد أن ينساني.. ولكن لم يحدث أيّ انسجامٍ بينهما..

والآن عيناك تتساءلان لماذا تركته وأنا أعلم مقدار حبه لي..

ولكنك تعلمين كم سحرني فهد عندما رأيته؛ لقد كان وسيمًا بشكلٍ أعجزني عن التفكير، كنت دائمًا أحلم بأن يكون زوجي وسيمًا... ومع أني كنت أشعر أن راشدا قد يكون زوجًا رائعًا لأنه يشاطرني حبي لكل

الأشياء التي أحبها ولأنني كنت أكن له الكثير من المودّةِ إلا أنه لم يكن وسيمًا مقارنةً بفهد..

لقد كنت أريد أن أتزوج رجلًا أحبه يقينًا وأريده.. تعلمين كم كنت حريصةً على ألا أتعرّض لتجربة طلاقٍ أخرى.. ومع ذلك أعترف أن هوانا دائمًا يتدخّل ليبرر لنا تفضيلنا لما نميل إليه..

لا لست نادمةً على راشد الآن.. أتذكرين هديّته تلك؟ لو لم يَظهر لي بذلك الشكل في يوم زفافي لكنت أعضّ عليه أصابع الندم الآن..

ثم إننا مهما جلدنا ذاتنا فلن يعود الزمن إلى الوراء. وأفضل ما نستطيع فعله هو أن نحاول النسيان والمضيّ في حياتنا..

ولكن أيّة حياة؟ التي انشقّت أمس في المحكمة إلى نصفين، وضاع منها النصف الأجمل؟ لقد كنت أتساءل وأنا أسمع القاضي وهو يقرّر نقل ملكية المزرعة والخيول إلى فهد: هل هذا ما يشعر به الإنسان عندما يُبتر عضوٌ من أعضائه؟

سأتجاوز ذلك؟

ربما..

تبتلع بنفسج حبة أسبرين.

هل جربتِ يومًا التعثّر بشيءٍ ما والسقوط؟

تغمض نور عينيها وتستعرض ذاكرتها.

ربما.. نعم.. على ما أعتقد.

- هل تذكرين لحظة ما بين الشعور باختلال التوازن والارتطام بالأرض؟ تلك اللحظة الغريبة؟ لجزيءٍ من الثانية تشعرين بالخوف، والحرج، وتحاولين جهدك تفادي السقوط، ثم تدركين أنه لا سيطرة لديك على الوضع، وأنك فشلت تمامًا في استعادة توازنك، وأن سقوطك أصبح شيئًا حتميًا، وأنك عاجزةٌ تمامًا عن إنقاذ نفسك من ضرره أو حتى تخفيف وطأته، وتشعرين أن الأشياء التي تحاولين التعلّق بها تخذلك، وأن عالمك يتهاوى من تحتك.. وأن كلّ الأشياء فيه تتكاتف من أجل إنجاح سقوطك، وتشعرين رغمًا عنك بأنك قد استسلمت وقضي الأمر، ولا يبقى لديك إلا انتظار الارتطام... كلّ ذلك في هذا الجزيء من الثانية.. التي لا يزيد أمدها عن اللحظة. يا لها من لحظةٍ عجيبةٍ؛ إذ تحتوي كلّ ذلك في آنٍ واحد.. هل خبرتها يومًا؟ إنني الآن أعيش هذه اللحظة بكل تفاصيلها، إلا أن لحظتي هذه تقاس بالشهور وليس بجزيئات الثواني...

...

الثانية بعد منتصف الليل وتهب بنفسج كاشفةً اللحاف وتحاول التقاط أنفاسها؛ لماذا ذكرى وفاة أمها الآن؟ كيف جاءت؟ يهاجمها مشهدٌ لجدتها وقد وقفت في المطبخ بجانب الباب قبل خمسة عشر عامًا وهي عبثًا تحاول السيطرة على دموعها، بعدها تهدأ قليلًا وتتجول في منزل ابنتها الفاخر تتلمس آثارها، ثم تذهب مع حفيدتها إلى المزرعة وتشاهد الخيول، ثم تمد بصرها مستعرضةً مساحتها الشاسعة فتلتفت إلى بنفسج.

هل أقول لك شيئًا؟ لقد تضايقت كثيرًا عندما جاء أبوك لخطبة أمك،

ربما أخبرتك أمك بذلك.. كنت أفضّل لها شابًا من الكويت لكيلا تفارقني، إلا أنني وافقت نزولًا عند رغبتها.. ولكني بعدها شعرت بأنها سعيدة هنا، لقد كانت تهاتفني دائمًا وهي تضحك بمرحٍ وسرورٍ؛ إذ تخبرني كيف كان أبوك يدرّبها على ركوب الخيل حتى أحبت هذه الرياضة، وعندما جئتِ حرصت هي وأبوك على أن يعلّماك ركوب الخيل في سنٍ مبكرةٍ حتى أصبحت فارسةً كأبيك، ثم تركت هي هذه الرياضة واكتفت بمراقبتك بفخرٍ وأنت تتسابقين مع والدك وتسبقينه أحيانًا ومع أقرانك فتسبقينهم دائمًا..

عندما كنت أبكي في المطبخ هذا الصباح لا أعلم لماذا تمنيت ثانية لو كانت تزوجت في الكويت ولم تغب عن عيني كلّ تلك السنين.. وكأنّ ذلك كان سيغيّر قدرها أو يحميها من ذلك المرض الذي داهمها وتفاقم حتى ماتت به..

لا أعلم لماذا تذكرت اليوم تلك الأمنية القديمة، ولا لماذا ظلّت تلح عليّ طوال الوقت.. ولكنها اختفت تمامًا عندما دخلت المزرعة. تذكرت كم كانت تحبها.. لقد قضت ابنتي الجزء الأجمل من حياتها هنا.. أعتقد الآن أنه لو عاد الزمن إلى الخلف وتُرك لي أن أختار لها زوجًا لما اخترت لها غير أبيك...

تدخل بنفسج في نوبة بكاءٍ أخرى.. ثم فجأة تهبّ إلى الهاتف وتكلّم أخاها؛ لا بد من الاستئناف، ستناضل بكل قواها، ستستعين بأكبر المحامين ولن تسلمها إلى ذلك الرجل لقمةً سائغة... ويُطالِب بالاستئناف، وتُقام الجلسات الاستئنافية، إلا أن هناك أشياء لا تُثبت بسهولة ولا تبنى عليها أحكام إن ثبتت، فتمضي الأيام ويبقى الحكم

قائمًا كالقدر المحتوم وقد فرض نفسه واقعًا لا تملك بنفسج إلا أن تحاول التعايش معه.

...

وتثبت الأيام ثانيةً أنها تتحرك حتى في الأوقات العصيبة، ويوشك أن يأتي موعد تسليم المزرعة، وقبل هذا الموعد بعدة أيام قليلة تذهب بنفسج إلى المزرعة مع نور، لا لتركب الخيل مرّةً أخيرةً بل لتودّع المزرعة بمن وما فيها، ويبدو أن رؤية المزرعة بعد الغيبة قد أنعشتها قليلًا فأنستها للحظات مرارة فقدها فدخلتها مبتسمةً وهي ترفع نظارتها الشمسية الداكنة عن عينيها لتحتفظ في ذاكرتها بالألوان الحقيقية لمزرعتها التي كانت.

وقفت أمام «بنفسج الصغرى»، وداعبت الشعر الأسود اللامع المتساقط على عنقها الطويل.

هذه المهرة سماها راشد.. لقد ولدت على عهده. وهذه الجميلة اسمها عالية، لقد ولدت على يدي أنا وجولي منذ عامٍ ونصف... سهرنا معها حتى الصباح.

أطرقت قليلًا عندما تذكرت تلك الليلة التي رأت فيها وجهًا آخر لفهد إذ اشمأز منها لأسابيع بعدها، فأصدر أمرًا متعسفًا بتقنين زيارة المزرعة فجعلها مرّةً في الشهر. تنهدت وقد استغربت من نفسها.. كيف استطاعت تنفيذ ذلك الأمر؟ ولكنها ابتسمت سريعًا قبل أن تلاحظ نور شيئًا وقبّلت المهرة ومسحت على وجه أمها ثم ذهبت إلى حيث أحلام.

وهذه أحلام، ألطف الأفراس لديّ، كثيرًا ما تُستأجر في المناسبات ليركبها

الأطفال؛ أختارها دائمًا لهذا العمل لأنها لطيفةٌ وهادئةٌ وصبورة. وأُرسلها عادةً مع حميد الذي دربّها منذ كانت مهرةً صغيرة. هل تصدّقين، لو سمعتُ يومًا أن أحد الملائكة قد هبط إلى الأرض وتحوّل إلى فرسٍ لظننت أنه أحلام! هل ترغبين في نزهةٍ على ظهرها؟

لا طبعًا!

لماذا؟ ألم تحبي ركوب الخيل عندما كنت طفلة؟

لا؛ أعني لم أجرّبه قط.

لقد فاتك شيءٌ جميلٌ إذًا.. ولو أن ركوب حصانٍ يجره سائس ليس كالانطلاق الحرّ على ظهر الحصان؛ ذلك شيءٌ آخر تمامًا.. إنه فضاءٌ رحب..عالمٌ جميل..كم أحبه، ذلك الانطلاق المبنيّ على الوثوق بحيوانٍ بهيم لديه من القوة ما يستطيع بها أن يقتلك، وعلى ثقتك بمهارتك، وبتلك العلاقة الجميلة المبهمة بينك وبين هذه المخلوقات الرائعة..

وتبتسم نور ابتسامتها الاعتذارية.

ما زلت أفضل الانطلاق بالسيارة.

ولكن السيارة لا تستطيع أن تُحبّك وتُميّزك عن غيرك كالخيل، وإن برمجتها على مقاساتك. صدّقيني لا شيء أكثر رومانسية وجمالًا من نزهةٍ هادئةٍ على ظهرها في يومٍ خريفيٍّ لطيفٍ مثل هذا اليوم.

تنظر إلى صديقتها مبتسمة.

يبدو أنني نجحت في إغرائك؛ هل تريدين أن تجربي الآن؟ فأحلام هنا

وحميد هنا أيضًا إذا لم تثقي بي.

سأجرب إذا ركبت أنت أيضًا.

تضحك بنفسج.

كفّي عن هذه المحاولات أيتها الماكرة! قلت لك إن ما بيني وبين الخيل انتهى حتى إشعارٍ آخر، وإنني جئت فقط لأودّعها!

تتجه بنفسج ببقايا ابتسامتها إلى مبروكة، الجدة الكبرى لخيول المزرعة. أَلْفَتْها رابضةً قرب السّور وقد أحاط الذباب بوجهها وعينيها الرطبتين. جلست إليها وأخذت تهش الذباب عن وجهها، وتمسح على كتفها المخملية الداكنة.

السنّ لها احترامها حتى إن كان المسنّ حصانًا؛ لو تعلمين يا نور كم أكنّ من التقدير لهذه الفرس.. إنها جدّة كلّ هذه الخيول تقريبًا.. هل تصدّقين أنني أشعر أحيانًا أنها جدتي أنا أيضًا؟

انفجرت نور ضاحكة.

أخيرًا عرفت من أين جاءتك هذه الرعونة الغريبة!

وفيما أخذت نور تقهقه بلا أدنى سيطرةٍ على نفسها وهي تسير خلف صديقتها بخطواتها المتساقطة من الضحك، أخذت هذه تمرّ على الخيول واحدًا واحدًا، تُقبّل هذا وتداعب هذه حتى وصلت إلى رهيب؛ وقفت أمامه واحتوت وجهه الكبير بين كفّيها، وسَرّ نور أن ترى بنفسج تبتسم للحصان؛ هناك شيءٌ تحبه كثيرًا في صديقتها وإن كان يضحكها أحيانًا، إنها تتعامل مع الحيوانات والأشياء بطريقتها الخاصّة جدًا.

بالمناسبة، الخيول تشبه البشر في كثيرٍ من النواحي، وكذلك كلّ الحيوانات على ما أظن؛ هذا الحصان بالذات أشعر أن به الكثير من الصّفات البشرية.. إنه يعتدّ كثيرًا بذاته. وهو شهم.. هل تصدقين؟

وتدخل نور في نوبة ضحكٍ هستيريّ أخرى.

إنه كذلك حقًا؛ الشهامة ليست قصرًا على البشر، ليتني كنت أستطيع أن أعطيك مثلًا ولكني لا أستطيع؛ هناك أشياء تشعرين بها فقط.. وهو في منتهى الذكاء والظرف والحيوية إلا أنه عنيدٌ جدًا، وهو عنيفٌ عندما يغضب؛ جرّبي أن تقفي أمامه إذا ما غضب عليك ونظر إليك نظرته الجانبية المرعبة.. كما أراه مع بعض الآخرين طبعًا لأنه لا يغضب مني.

تنظر إليه نور وهي تكحّ وتمسح دموع الضحك عن عينيها، وتواصل بنفسج:

أعتقد أنه لو قُدّر له أن يكون إنسانًا.. لكان راشد.

تبتسم لها نور وهي تراقبها إذ تلهو بشعره الأشقر اللامع، ولكن كومار يأتي من بعيدٍ لينهي اللحظة الباسمة حاملًا علبةً مربعةً لسيّدته... تشهق المرأتان إذ تريان العلبة القديمة المربوطة بشريط الهدايا والتي ينتهي بها المطاف في يدي بنفسج.

بنفسج؛ لا أنصحك بفتحها... أعطيني إياها؛ صدّقيني لستِ بحاجةٍ إلى ما فيها من كلمات، يكفيك ما مررت به في الأشهر الأخيرة..

تنتزعها من بين يديها إلا أنها تستعيدها ثانية.

نور؛ ما الأسوأ من الحال التي أنا فيها الآن؟ هل تعتقدين أن ما في

القواميس من كلماتٍ سيكون أسوأ من تلك الكلمات التي أرسلها إليَّ منذ عامين؟ إذا كان يريد أن يشمت بي فليفعل، وأعلم أنه قد يكون هذه المرة أكثر غضبًا من المرة السابقة؛ لابد أن يكون شديد الغضب.. من أجلي، لن يسامحني على ما فعلته بنفسي.

لماذا لا توفّري ذلك على نفسك إذا؟ لماذا يجب أن تقرئيها أيتها الفضولية؟

لقد قلتِها؛ إنني فضولية، ولن يهدأ لي بالٌ إلا إذا علمت ما الذي أرسله إليّ الآن.

ولكن...

«بنفسج، ستجدين مع هذه الرسالة عقد ملكية المزرعة باسمك؛ لقد استعدتها لك... اشتريتها عن طريق وسيطٍ بطريقةٍ ملتويةٍ قليلًا (أو ربما كثيرًا)، كي لا يعرف ذلك الخسيس أنني أريدها فيتشبث بها، ثم سجلتها باسمي ووهبتك إياها، لم يبق إلا توقيعك؛ لا تخافي، لا أريد ثمنًا لها من أيّ نوع لأني أستطيع تعويض ما أنفقته فيها خلال عامين أو ثلاثة.

أعلم أنك في عناد حصانك رهيب، وقد تصمّمين على رفضها كهدية، لذا إن كنت تفضّلين قذف ثمنها الذي اشتريتها به في وجهي فلا بأس أن تدفعي لي أقساطًا وفق استطاعتك (مع أني أظن أنك شبه مفلسة)، ولكنها لك على أية حال.

بالمناسبة، دخلتها أمس فرأيت في سمائها أطياف لون البنفسج التي كنت أراها فيها دائمًا، وشممت فيها شذا الأزهار البريّة الذي يذكرني بك دائمًا، وهل تذكرين أنني أخبرتك مرّة أن هناك مقطوعة موسيقية

تسمى «رؤيا» تذكرني بك؟ إنها شرقية السمات وتوحي بشيءٍ من القدسية والشجن، وفيها شيءٌ من غموض الليل وغموض الزمن عندما ينقضي فيتحول إلى ذكرى مفرحة وحزينة. لا أعلم لماذا تُذكرينني بهذه الموسيقى وتذكرني بك دائمًا. أشعر أنك لو كنت معزوفةً موسيقيةً لكُنتِها، هي أيضًا خُيّل إليّ أمس أنني أسمعها في أجواء مزرعتك. أما خيولك فرأيت في عيونها لمعان عينيك؛ رأيت في المزرعة كلّ ما كنت أحب، ومع ذلك فأنا لا أريدها، وهي لن تريدني؛ هذه المزرعة لا يمكن أن تكون إلا لك.

ملاحظة: لا تعتقدي ولو لثانية أنني فعلت هذا من أجل جمال عينيك (وإن كانتا جميلتين حقًا)، ولا من أجل أن أستعيدك، وإن كنت ما زلت أتمنى ذلك.. (على ما أعتقد)، ولا تشعري بالامتنان على الإطلاق لأنني لم أفعل ذلك من أجلك بل فعلته من أجل نفسي؛ ذلك الرجل أراد أن يذلني بإذلال المرأة التي أحببت فأردت ألا أقدم له هذه الفرصة. هذا كلّ ما في الأمر.

عودي لخيولك فقد وجدتها حزينة؛ إنها تحنّ إليك، وأنت تعلمين أن الحنين قد يُمرض الخيل.. (وربما غيرها من المخلوقات).

هل لي بملاحظةٍ أخرى؟ أرسلت لك هذه الرسالة مع العقد في علبةٍ قديمةٍ هذه المرة أيضًا فقط على سبيل المزاح، لأن جدتي تحتفظ بعقودها وصورنا القديمة وبكل أوراقها الهامّة في علبة بسكوت قديمةٍ مثل هذه.. يمكنك أن تبدئي من هنا..

تحياتي،
راشد

كانت نور تقرأ معها الرسالة، وعندما انتهتا من القراءة، نظرت إلى وجه صديقتها ضاحكةً مذهولة. قاومت بنفسج البهجة التي تسري في أوصالها وتُترجَم تورّدًا في خديها وهي تقرأ العقد المرتجف بين أصابعها ثم هزّت رأسها رفضًا فصهلت نور:

إيّاك! إيّاك أيتها المتهورة أن تفكّري في ردّ هذه الهدية!

ولكنك تعلمين أكثر من أيّ أحدٍ آخر في هذا الكون أنني أرفض أن أكون محلّ شفقة أيّ إنسان.

هل تفترضين فيَّ البلاهة، أم تتصنّعينها؟ هل سمعت قط عن شخصٍ يشفق على آخر فيهبه مزرعةً تساوي الملايين؟ إذا سمعت به فأعطيه عنواني من فضلك ليشفق عليّ.

لا أستطيع قبولها يا نور.. لن أسمح له بأن يستعبدني بها.

لن يستعبدك. إنها في يدك. لو أراد استعبادك لما استكمل كلّ الأوراق ووقّعها قبل أن يرسلها إليك؛ انظري... إنها كاملة؛ المزرعة ملكك الآن بمجرد قبولها، ألم تدركي ذلك؟

إذن سأقذف بكل درهمٍ أنفقه فيها في وجهه.

وهو لن يعترض على هذا؛ انظري رسالته، السطرين السابع والثامن.

ضحكت بنفسج وهي تنظر إلى الرسالة.

على الأقل يجب أن أكلّمه وأعنّفه بشدّةٍ على تدخّله في حياتي.

بل يجب أن تكلّميه لتشكريه... ليس الآن. عندما تسمح لك رعونتك

بذلك.

ابتسمت بنفسج أجمل ابتسامة يمكن أن تبتسمها.

ولكن هل تعلمين يا نور؟ لو لم يكن في قبولها فائدةٌ غير إحباط محاولة فهد لتحطيمي لكفى بها سببًا.

أرأيتِ؟!

ابتسمت بنفسج لرهيب، ثم انتبذت زاويةً من الزوايا لتستوعب الفكرة وتقرأ العقد والرسالة المَرَّةَ تلو المرّة، أما نور فقد انسلّت من المشهد بهدوءٍ لتتمشّى في أرجاء المزرعة وتترك لصديقتها المساحة التي تحتاجها.

بنفسج لا تستطيع التوقّف عن الابتسام؛ لقد اكتشفت الشعور بالاسترخاء الذي يجلبه الخبر السعيد بعد الأيام العصيبة. لم يسعدها شيءٌ مثل خروج المزرعة من ملكية فهد، وإذا ما ظلّت ملكًا لراشد فستكون أيضًا سعيدةً ومطمئنةً لأنها تعلم أنه فارسٌ حتى النخاع، ومن ثمّ فإنه سيقدّر كلّ حصانٍ وكل فرسٍ وكل مهرٍ وكل مهرةٍ وكل حبّة رملٍ فيها. أما التفكير في ما ستفعله بهذه الأوراق فليس هذا وقته؛ هل هذا وقت الاستغراب إذًا؟ إنها مستغربةٌ حقًا من شعورها بالطمأنينة التامة فقط؛ إذ علمت بأن المزرعة أصبحت لراشد. لم تكن تعلم من قبل إلى أيّ مدًى كانت تثق بهذا الإنسان... ثم هذا الشعور الغامر بالحماية؛ إنه شعور دافئ، مريح.. به شيءٌ من الإثارة.

استنشقت نور الهواء الذي يأتي لطيفًا إلا أنه محملٌ برائحة مرابض الخيل، فابتسمت وهي تتذكر رسالة راشد التي ذكر فيها أنه يشمّ

رائحة أزهارٍ بريةٍ في هذه المزرعة، من أين تأتي يا ترى؟ ابتعدت كثيرًا عن الاسطبلات إلا أن الرائحة عندما اختفت لم تأت بدلًا منها رائحة الأزهار البرية؛ هل كان يعني يا ترى حقول تلك النباتات التي يبدو أن الخيول تقتات عليها؟ اقتربت منها وأخذت تراقب العمّال وهم يقطعونها وينشرونها على الأرض لتجف، ولكن رائحة الخضار الطازجةِ المنتشرة ليست شذا أزهارٍ بريةٍ على الإطلاق، ثم السماء...

رفعت رأسها وأخذت تنظر إلى السماء في كلّ الاتجاهات. هناك درجاتٌ من الأزرق وبعضٌ من غيومٍ بيضاء وفضية داكنة، ولكن لا أثر لـ«الأطياف البنفسجية» كما ذكر. ضحكت لنفسها؛ ذلك الأحمق متيمٌ حتى الثمالة.. وتلك الحمقاء ما زالت تكابر...

عندما عادت نور إلى حيث تركت صديقتها وجدتها تهبّ واقفةً وهي تنفض القشّ عن ثيابها، ثم تستنشق الهواء عميقًا كهيئة من يستعدّ لشيءٍ جديد.

إلى أين؟ منظرك يوحي بأنك اتّخذت قرارًا.. إيجابيًا؟ هل ستقبلين المزرعة؟

لم أفكر بعد ماذا أفعل بهذا الخصوص. مثل هذه القرارات لا يُتّخذ بين عشيةٍ وضحاها.

تُخرج هاتفها من الحقيبة مبتسمة، فتتساءل نور بفضولٍ متفائل.

هل ستكلمينه الآن إذن لتشكريه؟

لا طبعًا؛ ألم تقولي «عندما تسمح لك رعونتك بذلك»؟

من ستكلمين إذا؟

كومار. أريده أن يسرج لي رهيب. لم أنطلق به منذ أمدٍ بعيد.

عندما امتطت بنفسج ظهر حصانها بدت في مكانها المنطقي الذي لا تُرى بكل أبعادها إلا فيه، وابتسمت.

سأقطع مع رهيب المسافة حتى نهاية المزرعة وأعود من الجهة الأخرى في أقلّ من نصف ساعة. انظري إلى ساعتك.

لم تنظر نور إلى ساعتها بل ضحكت وهي ترى بنفسج تنطلق بسرعةٍ رعناء على ظهر الحصان مخلِّفةً الكثير من الغبار في أعقابها.

أهو لون التراب المختلط بلون السماء والغيوم، أم لون البهجة بعد طول غياب، أم ما الذي يملأ الجوّ الآن بأطياف البنفسج؟

نورة آل سعد

(سَمِيَّتِي.. المرقاب 1970)

نورة محمد آل سعد

- ماجستير آداب من الجامعة الأردنية، قسم اللغة العربية، 1992م
- كاتبة مقالات في الصحف المحلية

صدر لها :

- «بائع الجرائد» (مجموعة قصصية)
- «تجريبية عبدالرحمن منيف في مدن الملح» (دراسة أدبية)
- «أصوات الصمت» (مقالات في القصة والرواية القطرية)
- «الشمس في إثري» (مقالات في الشعر والنقد)

سَمِيَّتِي

المرقاب 1970

هوت الصفعة على وجنة زميلتي كأنها انزلاق نصل مقصلة، وتردد صداها بين جوانحي، بينما غرق الفصل كله في صمت مطبق واحتبست أنفاسنا. رأيت خد زميلتي الذي يواليني أحمر كالشمندر، وتعبّرت زميلتي قليلًا وارتجف أنفها الصغير، لكنها لم تبك لأنها كانت أشد ذعرًا من أن تسمح لنفسها بذلك. طوحت المعلمة مرارًا بالدفتر أمام عينيها المنكستين، ولم أملك ألَّا ألاحظ البقعة التي أحدثتُها البارحة على تجليدة الدفتر البني، عندما كنت أتناوله ويدي ملوثة بمحبرة أختي. كان الدفتر بلا أدنى شك دفتري! وكنت من يجب أن يتلقى تلك الصفعة العنيفة.

استأنفت المعلمة عويلها وعواءها في وجه زميلتي فاطمة، وصاحت: أهذه إجابة؟ بعد شرح الأمس يا جحشة؟ أهذا دفتر أم خرقة متسخة؟ وقذفت الدفتر في وجهها فأمسكت فاطمة به بين يديها وانتبهت حينئذ إلى أن الدفتر لم يكن يخصها!

عندها خرج صوتها مضعضعًا: أبله.. مو دفتري.

التفتت إليها المعلمة بسؤال زاعق: بالله! يا مخلوقة! اسمك على الدفتر! أنتِ فاطمة محمد؟

وقالت: لا.. اسمي فاطمة علي.

ومن هي.. بلا صغرى.. فاطمة محمد؟

وتعالت أصوات التلميذات واختلطت وامتدت نحوي في اللحظة ذاتها أكثر من عشرين يدا ترفع نحوي سبابتها كالحراب الصقيلة وحوصرت من الناحيتين. بمجرد أن لمست المعلمة كتف فاطمة المظلومة المسكينة براحتها هامسة (يا حبيبتي!) انفجرت فاطمة باكية وتهاطلت دموعها بلا توقف. انصرفت المعلمة بكل اهتمامها إلى مواساة فاطمة الأخرى وترضيها. والتف الجميع حول فاطمة الأخرى في سائر الوقت وحضرت الوكيلة والسكرتيرة بعد حين وبدا أنهم قد نسوا أمري ونجوت من العقاب حتى فاطمة نفسها لم تؤاخذني فيما بعد! ولا يجدر بها أن تفعل نظرًا لأنها حصدت بسببي كلّ ذلك الاهتمام وقد خصتها المعلمة بالتدليل والمحاباة حتى نهاية الأسبوع.

تعلم فاطمة الأخرى بأنه ليس لي يد في تشابه اسمينا، كما أنني لم أتعمد أن أخطئ في حل المسألة الرياضية أو في توسيخ دفتري، ليس لي ذنب في أنني كنت على ما أنا عليه. كلّ ذلك واضح وجلي لأي عاقل، ويسهل استيعابه، لذلك يفهمه الصغار أكثر مما يفعل الكبار وقد تجاوزنا ذلك، وصرنا صديقتين أنا وفاطمة الأخرى.

كانت فاطمة مرتبة ونجيبة وخطها أجمل وترسم الفراشة والسمكة

والوردة ببراعة فائقة، وسندويتشها الذي تجلبه من بيتهم ألذ حتى من سندويتشات المقصف، (وذلك واضح من طريقة أكلها) وشعرها أنعم من شعري ومفروق بعناية ودقة. لم يكن شعري أملس مفرودًا مثل شعرها، ولم أكن أبالي بترتيب محتوى حقيبتي كما تفعل، كما أن (مريول) المدرسة الذي أرتديه كان دائمًا مجعدًا وليس مكويًا كمريولها. وفي مريولي أيضًا فتق على جانبه لم يبال أحد برتقه أو ربما لم يلاحظه أحد، ولم تكن أمي تدس في حقيبتي سندويتشًا، لأننا كنا في بيتنا نتناول ما يتوفر (عندما يتوفر) من الخبز والجبن وبعض الزيت، قبل أن نغادر البيت صباحًا، وكانت فاطمة الأخرى أجمل مني، ولكني لم أدرك ذلك الفرق فورًا، لكني استطعت أن أستنتجه لاحقًا.

كانت سَمِيَّتِي فاطمة متفوقة، وتأتي في المركز الثاني في الصف، بينما أحوز أنا المركز السادس في أحسن الأحوال، وكان أهلها يحثونها أن تغدو الأولى ولا يقبلون بأقل من ذلك، بينما كان أهلي يخبرون زوارنا بأنني نجحت ولن أعيد السنة.. كبعض أبنائهم؛ لم أكن أذاكر أبدًا. كنت أجتاز الاختبارات لأنني كنت أحسن الإنصات حين أستمع، ولم أكن أستمع إلّا للمواد التي أحب مدرساتها. كان كلّ شيء في عالمي مرتبطًا بالحب ومتوقفًا عليه؛ إما أن أحبه فأتعلّق به وإما ألا أحبه فأتهرب منه وأتحاشاه، وكنت أحب فاطمة لأنها كانت أفضل ما فينا نحن الاثنتين. قفلنا عائدتين إلى البيت، مشيًا على الأقدام، وطلبت من فاطمة أن نتوقف عند شجرة اللوز؛ كان أصل الشجرة في بيت أحد الناس، لكن الشجرة تنحني بأغصانها إلى الخارج، وكان ثمة غصن دانٍ مثقل، غير أننا لم نستطع أن نتناوشه لأننا لم نكن نطاله، وكان اللوز مرصعًا في الغصن نضيجًا سمينًا مغويًا.

رميت نحوه حقيبتي فعادت إلي مرتدة بأسرع مما ارتفعت، وطلبت من فاطمة أن تشبّك يديها معًا لأرتقي عليها بقدمي، فتلفتت فاطمة ثم أطاعت على مضض، وقفزت لأمسك بالغصن وظللت لثوان معلّقة في الهواء تتخبط قدماي وفاطمة تناشدني أن أكون حذرة وألا أحدث جلبة! وأنا لا أقوى على النظر إلى أسفل ثم هويت ككيس بطاطا وتعفرت بالتراب.

مر بنا صبي طويل، حاذانا وتوقف يتفرج علينا ثم تهادى بخطى هينة سهلة، ولم يغادر بل استند إلى حائط خرب مقابلنا، متجملًا بالصبر يراقب وينتظر.

كنت أعرفه وأعرف أمه وأباه وأعمامه؛ إنه إبراهيم ابن جار لنا في الفريج، وهو يعرفني أيضًا وإذا أخبر أمي وأخي بما شاهده عند شجرة اللوز أن كان قد رآني متدلية وشهد سقطتي فسوف يهلكني لا محالة! لطالما عوقبت وجرى تحذيري من عواقب السقوط لأنه يؤذي الفتيات على وجه الخصوص، والآن ماذا ينتظرني؟

كان إبراهيم طويلًا ممشوقًا بهي الطلعة له عينان كفنجانين، وله نونية في ذقنه، وكانت أصابعه رفيعة وبراجمها وردية، وله صوت أبح هادىء ينفذ إلى القلب كسكين، وكان حضوره يأسرنا ويشيع في أنفسنا حُبُورا غريبًا؛ كان نعمةً! ولم نتمنَّ شيئًا أكثر من أن يقترب منا.

في أكثر الأحيان أرتاع لما قد يحدث لي وما قد ينجم عنه من تبعات لست مسؤولة عنها بالكامل، أما الآن فإنني أرحب بحضور إبراهيم. أتشاور مع فاطمة وهي توافقني، وعيناها تلتمعان ونضحك كلتانا في كُمَّيْنا،

ونومئ إلينا بالإشارة.

يتقدم إبراهيم مترددًا بعض الشيء؛ إنه وجل مثلنا! ما أسخف الصبيان! نتطلع إليه بصمت فلا يخذلنا. قفز عاليًا ولفرط حماسته ارتطم رأسه بالغصن؛ يتظاهر بأنه تعمد الإتيان بتلك الحركة، وأنه لم يبال بما حدث. يقفز بخفة مجددًا إلى الغصن الذي غدا الآن ملتويًا وتدلى إلى الأسفل ويشده بثقل جسمه فينكسر الغصن ويقع علينا نحن الثلاثة. لم نتأذّ! ولم نسأل إن كان إبراهيم قد تأذى. جمعنا ما وسعنا جمعه مما تناثر حولنا من اللوز، وركضنا مبتعدين، وكذلك فعل إبراهيم، لأننا عرفنا بأن صوت ارتطام الغصن سوف يستدعي من يتحرى الأمر.

بعدما عدونا بعيدًا أنا وفاطمة واجهنا المفترق أمامنا؛ هنا تنفصل عني فاطمة ونفترق، لأن بيتهم على طرف الفريج بينما بيتنا في قلبه تمامًا. انتبهنا وأفواهنا محشوة باللوز إلى أنني قد نسيت حقيبتي وخلفتها ورائي، بينما لم تنس هي حقيبتها.

عدت إلى بيتنا من طريق مختصر عبر المقبرة الموحشة كسبًا للوقت؛ لم أجرؤ على العودة إلى حيث شجرة اللوز لأتفقد حقيبة المدرسة. ماذا ستفعل أمي بي؟ ما أنكد حظي! والأدهى ماذا سأفعل غدًا في المدرسة بلا حقيبة؟

ما كان أشد دهشتي وفرحتي حين رأيت حقيبتي بشحمها ولحمها مسندة إلى حائط بيتنا قرب الباب! وتطلعت حولي فلم أجد أحدًا؛ علمت بأن إبراهيم حملها إلى بيتنا.

كانت الحياة تحمل إلي فيضا من التجارِب التعيسة، على أن أفظعها كان ماثلًا أمامي، عندما اكتشفت بقعًا حمراء من أثر اللوز على أسفل مريلتي وجوانبها! وانخلع قلبي من مكانه! كيف سأتمكن من تعليل تلك البقع الدموية على ثيابي المعفرة، وقد أفنيت كلّ اللوز الذي كان بحوزتي، ولم يبق منه معي ما أبرزه دليلًا على وجوده. تخيلت وجه أمي المسكينة مهتاجًا طافحًا بالخوف. ستطلب مني بعد أن تدفعني وتصرخ في وجهي ألا أكذب عليها! لأن الكذب حرام، ستقول بصوت ملتاع لو كنت أحبها لعرفت كيف أحافظ على نفسي! لو كنت أحبها ما كدرتها وما سببت لها الألم وهي التي قاست ما يكفي ويوفي ويثقل كلّ ميزانها الطافح. وقد كنت أحب أمي؛ أحببت أمي أكثر من أي شيء آخر يسعكم التفكير فيه، أكثر مما يحب عشرة أبناء بررة، أكثر الأمهات حَدِبًا في العالم. وفي سبيل الحب والاعتراف والقبول نرضخ لمشيئة الأمهات ونتطابق مع أوضاعنا المفروضة علينا؛ من السهل الوقوع في ذلك الفخ! أعني أن نتحول تدريجيًا.. وطواعية إلى ما يريدوننا أن نصير عليه، كما يوجهوننا ويسوقوننا إليه سوقًا! أقول لكم يجب أن نقاوم حب الأمهات لنا وحبنا لهن! ولكنني لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أحب أمي في السر! ولذلك قررت بيني وبين نفسي ألا أسمح لأولادي (إن قُيِّضَ لي أن أجلب أطفالًا إلى هذا العالم) أن يحبوني كثيرًا! لأن الحب يشرع الأفكار المقيتة ويميت القلب ويحرمنا من أن نكبر وأن نصير ما نريده، بغض النظر عما تريده لنا أمهاتنا.

أصبحت الآن أشعر بالندامة الشديدة تغمر كلّ كياني لأنني أكلت اللوز، ولأني عصيت أمي! وقررت أن أتظاهر بالمرض وأدعي وجعًا في بطني وأن أختلق قصّة مريحة؛ فالكذب ليس سيئًا ولا معيبًا في كلّ

الأوقات. وكل الكذب الذي سيملأ فمي أفضل من التعييب والتعيير الذي سيصيبني، ومن كلّ التشنج والهياج وتكدير صفو حياتها البائسة.

كان إبراهيم «بطلنا» في الأيام التالية؛ انتظرنا في الوقت نفسه، في المكان نفسه، وبيده مقلاع كبير، ونظرًا لبراعته فقد حشونا بطوننا وجيوبنا باللوز. لم نشكر إبراهيم قط، ولم نتبادل معه حديثًا، ولم يرافقنا في الطريق، لكنه كان ينظر إلينا.. كلتينا، ويبتسم وأغشت ابتسامته أعيننا أكثر من ضياء الشمس ذاتها.

وفي اليوم الرابع افترقت عني فاطمة عند بوابة المدرسة؛ قالت بأنها ستذهب إلى بيت خالتها في الجانب الآخر وقالت بأن أهلها مدعوون إلى وليمة طهور. وتركتني ومضت على عجل وعندما عبرت شجرة اللوز لم أجد إبراهيم واقفًا هناك، وأحسست بأن حقيبتي ثقيلة وأن العالم خاوٍ وخنقتني غصة في حلقي واعتصر الألم أحشائي.

أرتني فاطمة رسائل إبراهيم إليها؛ كان يتركها تحت حجر على الطريق، وأرسل إليها صورته أيضًا، وساعدتها على كتابة رسائلها إليه وكنت أبرع منها، وكان سهلًا علي أن أملي عليها ما أردت أن أقوله لإبراهيم وتخطه هي بأناملها. ما أكثر ما طرزت من ألفاظ كانت فاطمة وإبراهيم يجهلان ما تعنيه لي! وتقاسمنا رسائله؛ كنا نقرؤها معًا، مرارًا، ونستظهرها، بالرغم من أنها كانت مفككة وظاهرة التلفيق وتذكرنا بما نسمعه في الأفلام العربيّة.

عندما تخلى إبراهيم عن فاطمة وصار يتهرب منها وذهب يتصيد بمقلاعه في مكان آخر، جاءت إلي وأمسكت يدها وبكينا معًا وكنت قد

عرفت قبلها معنى الرفض والفقد.

عندما حضّت أمي أخواتي أن يتخيرن عروسا لأخي، اقترحن أسماءً عديدة من صويحباتهن، وعندما صحت ناطقة باسم فاطمة؛ سَمِيَّتي التي تقاسمت معها كلّ شيء تقريبًا، قالت أمي بانتهار: أي فاطمة؟! ونظر اليّ أخواتي بإشفاق، ودفعتني عمتي في صدري وانطلقت قذائف من لسانها، قالت كلامًا كثيرًا فيه: (هم) و(نحن) (لا يشبهوننا) (ليسوا من مواخذينا)، وأخرستني أمي وطردتني؛ ليس ثمة ما يمكن مناقشته، إنه أمر منته ومختوم.

ارتميت على فراشي وانعقفت تحت لحافي منقبضة الصدر مخضلة العينين وأحسست بيدي أمي تجسّان رأسي، وتظاهرت بالنوم لكيلا تتوقف عن مداعبة شعري. هبّ الخيال والنعاس لنجدتي وفكرت ماذا لو أنني ولدت هناك في الطرف الآخر من الحي.. حلمت ليلتها بأنني كنت أبات في فراش فاطمة بينما.. باتت هي في فراشي مع أمي وأخواتي.

شمة الكواري

(مع أبي)

شمة شاهين الكواري

- بكالوريوس علوم حيوية طبية
- كاتبة مقالات في الصحف القطرية: (الراية، والعرب، والمرايا)
- كتبت زاوية أسبوعية في صحيفة الشرق بعنوان «حديث القلم»
- أعدت صفحة حديقة الأدب ومواهب صغيرة بمجلّة (سيدة الشرق)
- فاعلة في العمل الاجتماعي والأنشطة النسائية بالدوحة

صدر لها :

- نحن نزرع الحب (مجموعة قصصية)

مع أبي[1]

بعد الإصابة بالسرطان..... قبل الحادث بأيام
الحبُ والفراق صديقان، نحنُ نحبُ فنفارق، وبعد أن نفارق نظلُ نحبُ.
هذا هو قدرنا.

الراحلون، لا يمكن استرجاعهم أبدًا، لكن يمكن ألا ننساهم.

الكلُ يتغنى باسم حبيبه، وأنا أشتاقُ إلى حبيبي.

أتوجعُ شوقًا لأقبل يديه وقدميه، ولأضم في صدري الحران وجهه.

(1) قصة: مع أبي بعد الإصابة بالسرطان... قبل الحادث بأيام، هي إحدى القصص، ضمن مجموعة قصصية للأديبة شمة شاهين الكواري، عنوانها «وردة واحدة وخمس بتلات»، وهي المجموعة القصصية الفائزة بالمركز الثالث في جائزة فودافون الأدبية الثانية للعام 2015.
تأثرتُ كثيراً بأحداث هذه القصة، لارتباطها بالحديث عن مشاعر حب البنت لأبيها. بالطبع أهدي أحاسيس الحب الغزيرة فيها للعزيز الراحل أبي رحمه الله. وأهديها لأمي الغالية التي أظلت أسرتنا بفيض حبها وحنانها، وأهديها لشقيقاتي العزيزات، وللزمن الجميل الذي جمعنا في بيتنا الهادئ في مدينة خليفة، ونحن نستمتع بالقراءة لعبدالوهاب مطاوع. وحباً لوفاء وحب الصديقة العزيزة منى بنت مبارك الكواري، لوالدها الراحل السفير السابق مبارك بن ناصر الكواري رحمه الله، اخترتُ أن أبقيها، باسمها واسم والدها.

أشعرُ أحيانًا بأني في غيبوبة من أثر حمى الشوق!

وقد طالت الحمى، وطال الشوق واشتد، حتى غيبت سكرته عقلي؛ فأنا لا أفكرُ إلا بحبيبي، لا أفكرُ إلا به هو: أبي.

أصعبُ فراق، فراقُ من عاشرناه العمر كله، ولا أقولُ من عاشرناه سنوات أو عقودًا. اعتدتُ كلّ يوم سماع صوته الحنون، وأحاديثه المبهجة، وفي طفولتي كان حضنه هو مقعدي المفضل.

وراقبتُ فعل الزمان به، وتغير ملامحه، وكيف غزت التجاعيد وجهه السمح، فازداد إشراقًا وبهاء، وما فعل بلون شعره، الذي كان في شبابهِ كثيفًا وناعمًا، ثم شهدتُ أثر المرض غير الرحيم به، عندما فقدهُ كله، فأصبحت الطاقية البيضاء المخرمة بنقوش صغيرة لا تكادُ تفارق رأسهُ أبدًا.

حقًّا؛ ما أصعب الفراق! نجترُ بعده الأوجاع، توهننا.. تدقُ عظامنا، كما تفعلُ بذاكرتنا.

كان هو كلّ دنياي، كما كنتُ أنا كلَّ دنياه؛ فوالدي الغالي تعرف بوالدتي ذات الأصل اللبناني في أثناء دراسته في بريطانيا عام 1968، كان حبًّا خاطفًا سريعًا، لم يستمر إلا عشر سنوات، وكنتُ أنا ثمرته الوحيدة.

عشقتُ صورتهما معًا بالأبيض والأسود على ضفاف نهر التايمز؛ والدي ببدلته الأنيقة، ووالدتي بفستانها الأبيض الواسع القصير ذي النقط السوداء الصغيرة، وتسريحتها الضخمة المعقوفة للخلف جعلها مميزة.

لطالما ضبطتُ والدي يتأملُ هذه الصورة، ثم يعود ليخبئها في دفتر قديم، أخبرني أنه يحتفظُ به منذ أيام دراسته في أكسفورد ببريطانيا. وهو يحتفظُ به لأنه يحملُ ذكريات عزيزة عليه؛ فهذا الدفتر سبب تعرفه بوالدتي، فقد ضيعت حضور عدد من المحاضرات، واقترب موعد الاختبار، ولم يرض أحد بمساعدتها في الدراسة إلا أبي، وهكذا بدأ حبهما، واستمر، حتى تكلل بالزواج.

كنتُ أعلمُ أنه يعشقها، وكم من مرّة شاهدتُه يراقب أخبار الحرب الأهلية في لبنان، والعدوان الإسرائيلي على الجنوب، ثم يحثني بنبرة مضطربة قائلًا:

منى... اتصلي بأمكِ، دعينا نسمعْ صوتها، ونطمئنَّ عليها.

هي أيضًا أحبته، ولا أجرؤ على قولي بأنها قد عشقته، أمي لا تجيد فنّ العشق، لكن فنّانة في الإخلاص والحب. علمت أنه لم يعد بإمكانها الحياة والتأقلم مع بيئتنا المحلية، فقررت المغادرة، وضحت بالتنازل عن حضانتي في مقابل حريتها.

أبي كان منكسرًا حزينًا، لطالما أجاب لها كلّ طلباتها، أنهيا الدراسة الجامعية، وأنجباني أنا هناك بالطبع، ووافقها على الاكتفاء بطفلة واحدة لتتفرغ هي للدراسة.

ولأنها لم تتأقلم مع جو الرطوبة وحرارة القيظ الشديدة في بلادنا، كانا يقضيان الإجازة الصيفية بين ربوع جبال لبنان الساحرة، التي شهدت طفولتي وصباي الأول، ثم أكملا الدراسات العليا معًا، وبعد عشر سنوات من الدراسة في بريطانيا، واجهها أبي قائلًا بحزم:

لا بد لي أن أعود إلى وطني، لا حياة لي هنا، وطني هو حياتي، وحياتي هناك في وطني.

انفصلا بهدوء، ولم تفارق أيًّا منهما مشاعر الودّ والاحترام للآخر؛ لم أسمعه أبدًا يذكرها بسوء، ولم أسمع منها قط عنه شيئا لا يليق.

محظوظة أنا بهما، بحبهما لي، بحنانهما، أبي تشبث بي، وأمي لم تهملني أو تنسني.

كنتُ في العاشرة عندما ودعتني وسط زحام مطار هيثرو الذي يضجّ بالمسافرين القادمين والمغادرين، ضمتني ثم أبعدتني عنها، وهي تطمئنني بنبرة حازمة:

إنه إنسان رائع، أنتِ محظوظة لأنه أبوكِ.

عاودتُ ضمها بهستيرية، طلبتُ منها ألا تتركني، لكنها عادت وابتعدت عني، قائلة بذات النبرة المطمئنة: لو لم أكن أعرفُ أنكِ ستكونين بخير، ما تنازلتُ عن حضانتكِ له، ثم ربتت على شعري الكستنائي، وحدقت في عيني العسليتين اللتين ورثتهما عنها، وقالت: ستكونين بخير، وضعكِ هناك معهُ أفضلُ لكِ، ثقي بكلامي.

رفض عقلي الطفولي تصديقها، صحتُ وانهرت باكية، بينما اختفت هي في الزحام، لم ترجع لتهدئني، أما هو فقد ضمني إليه بحنان، وربت على شعري قائلًا:

أنتِ كلّ حياتي يا طفلتي العزيزة.

في تلك الرحلة من مطار هيثرو إلى مطار الدوحة، من العام 1979،

رأيتُ دموعًا كثيرة في عينيه، لم أسألهُ عنها، اعتقدت أن انهمار دموعه أمر لا مفر منه، هي جزء من الحدث، مرافقة للرحلة، ما دمتُ أنا أيضًا قد قضيتها كلها باكية.

وبمرور الزمن لم أعد أظنُ أن دموعه الغالية التي كان يذرفها كلما شاهد تلك الصورة، وكلما أمسك بيديه الدفتر القديم في صالة بيتنا الذي ضمني وأبي، أمرًا طبيعيًا.

كان يتأمل الصور، يسترجعُ ذكريات عزيزة على قلبه، ثم يشرد في التفكر، وعندما ينتبه لنظراتي المستفسرة عن سر دموعه، كان يقول بنبرة يحاول أن يجعل منها محايدة: هناك غبار في الجو، أصاب عيني.

كنتُ أعلمُ أن بيتنا القابع بهدوء في وسط مدينة خليفة بالقرب من مسجد عمر بن الخطاب، لا غبار فيه، لكني آثرت الصمت، وعدم التدخل في الأمر.

كان أبي ذا أذن موسيقية حساسة وصوت جميل رقيق، فهو يعشقُ أغاني أم كلثوم وفيروز، ويسمع أكثر ما يسمع أنت عمري وبكتب اسمك يا حبيبي. أما أغنية: وداعيه يا آخر ليلة تجمعنا... وداعيه أعز الناس يفارقنا.. عسى الله يصبر الموعود.. أنا بعدك عمر مفقود.

فقد كانت هي التي يرددها وهو يتصفح أوراقه القديمة. وكأنه لا يزال لم يودع حبه.

وبعد أن جاوزتُ الرابعة عشرة بشهرين، قال لي أبي بنبرة شبه محايدة: لقد كبرتِ يا منى، وصار بإمكانكِ المحافظة على الأشياء العزيزة. هززتُ رأسي موافقة، ولم أفهم قصده، فاستأنف كلامهُ قائلًا:

لقد تزوجت أمكِ منذ أسبوعين، ولم يعد من حقي أن أحتفظ بصورها، أو حتى بذكرياتي معها.

ثم افتر ثغره عن ابتسامة حنونة، وهو يبحرُ في لون عينيَ، وأكمل:

كل شيء انتقل لكِ الآن.

ثم عاد وأكمل بنبرة أرادها أن تكون ضاحكة ليلطف الجو: أنتِ تحتفظين بكامل حقوق الملكية، لكلينا، لماضينا وحاضرنا ومستقبلنا، أما نحنُ فقد انتهينا من بعضنا البعض، لا نملكُ إلا الماضي.. الماضي وحسب.

كانت جدتي تلحُّ عليه ليتزوج مرّة ثانية. في طفولتي كنتُ خائفة لدرجة الرعب من مجرد تصور الفكرة وإمكانية تطبيقها، ولم أجد تفسيرًا منطقيًّا لسبب رعبي إلا الأفكار المبثوثة في الأفلام والمسلسلات عن زوجة الأب القاسية الشريرة.

وبمرور الزمن وجدتُ أن طلب جدتي جد منطقي، ثم انحزت إليها وانضممتُ إلى صفها، بأكثر مما يمكن أن يتصور، حتى اقتنع ووافق، وتزوج من مطلقة، هي أيضًا كانت أمًّا لثلاثة أطفال، ولدين وابنة، وما حدث بينهما فاق التوقعات.

اتفق والدي معها قبل عقد القران على أن تعيد أطفالها لأبيهم، فالقانون صريح وحازم في هذه المسألة، ويؤكد على سقوط حق الأم في الحضانة ما دامت ستتزوج، لكنها وبعد يومين من زواجهما، دخلت مع أبي في مشادة عنيفة، وأصرت على أن يقوم هو بالتنازل عني، ويعيدني إلى لبنان لأبقى في حضانة أمي.

أبي حاول أن يقنعها، وأن يتحدث معها بالعقل والمنطق استحالة أن يتنازل عني وإعادتي إلى لبنان؛ لأنني ببساطة أنتمي إلى هنا، إلى أصول أبي وجذوره. كما أن أمي قد تنازلت عن حضانتي في طفولتي، ولم تكن قد تزوجت بعد، فكيف يعيد لها الحضانة بعد أن كبرتُ، وصرتُ شابة ناضجة.

كان صوت شجارهما يصلنا أنا وجدتي الجالستين في حجرتها الواسعة، في الدور الأرضي، ورأيتُ أبي يدلف إلى الحجرة، وصياحه يملأ المكان.

كان مشحونًا بالغضب والتوتر، وهو يردد بعصبية بالغة: إنها مجنونة، لا أدري كيف وافقتُ على الارتباط بها، وانتهى الزواج قبل أن يبدأ، ولم تفتح جدتي فمها بعد ذلك بشأن هذا الموضوع.

كان كلّ يوم في حياتنا معًا يومًا جميلًا وخاصًا. كنتُ ووالدي من أشد المعجبين بالكاتب المصري ذي القلم الرشيق عبدالوهاب مطاوع، وكنتُ أتابع قراءة بريد الجمعة على جريدة الأهرام المصرية، كان يتفنن في انتقاء الحلول للمشاكل الرهيبة التي يعالجها، وكم من قصّة استوقفتني، وكم من حل له أثار إعجابي به أكثر فأكثر.

وكنتُ أعشقُ الحوار الذي يدور بيني وبين والدي بشأن بريد الجمعة، وكانت جدتي رغم أميتها وكبر سنها تشاركنا الحوار، وتقول الرأي السديد منه.

استوقفتني قصّة العيون الحمراء التي طرحها مطاوع بعد ذلك في هيئة كتاب، ضمن سلسة كتب اقتناها أبي جميعًا لي في موسم أقامه

معرض الكتاب السنوي. كانت العيون الحمراء، تحكي عن قصّة شاب يفتقد والده المتوفَّى، يفتقد الجلسات العائلية الحميمة ليلة كلّ خميس؛ قال: لقد غابت الضحكات... غابت الليالي الدافئة... غاب الوالد الغالي.

حينها بكيتُ حتى احمرت عيني.

ذاك المساء، وبعد أن عاد والدي العزيز من الجامعة، لاحظ بالطبع احمرار عينيّ، فأخبرته عن السبب بعد أن استفسر مني، فتبسم بهدوء، وقال بنبرة رزينة وهو يجلسُ قبالتي في الصالة، ويسرح بناظريه بعيدًا عبر شباك الصالة المفتوح، نحو السدرة في جانب من حوش بيتنا: وما هو الجانب الإيجابي لهذه القصّة؟

لم أعِ قصده؛ كنتُ لا أزال أشهق من أثر البكاء، وأمسح بظهر كفي الماء السائل من أنفي، وأنا أردد: يبدو أن هناك غبارًا في الصالة.

تحول بناظريه نحوي، تأملني ولم يطل تأمله، قال بهدوء:

ليس في المكان أي غبار، وسماء الدوحة صافية هذا المساء، قومي وأخبري جدتكِ لتستعد لنتمشى على الكورنيش.

أصر والدي أن يدفع بنفسه كرسي جدتي المتحرك، على بلاط الكورنيش، انتقلتُ بعينيّ هنا وهناك، كان القمر البدري يتوسط كبد السماء بكبرياء وينعكس ضوؤه على بحر الدوحة الصافي، وريح هادئة تهبُّ من الجنوب تداعب الوجوه بحنان.

مر بنا طفل صغير حافي القدمين يركضُ خلف أخيه الذي سرق دراجته، ووالدتهما من خلفهما تحثهما على الهدوء والانضباط. ومر

بنا رجل سمين التصق قميصه الرياضي بصدره لكثره تعرقه، يحملُ في يده اليمنى قِنِّينَةَ ماء يشرب القليل منه، ويصبُ الكثير على وجهه.

همس أبي وهو يؤشر على القمر سائلًا بسخرية: أترينه؟

رددتُ بحزم: أتسخرُ مني؟! بالطبع أراه!

ابتسم أبي بحب وحنان، وجلسنا معًا على كرسي قريب، وَصَفَّ والدي كرسي جدتي بجواره، وشاركتنا جدتي الحوار قائلة بذكاء: يا متحاذقة، ألم تفهمي قصد والدكِ؟.

لم أكن بحاجة لفك ألغاز أبي وجدتي، يكفيني ما عانيتُ طوال اليوم، أبي يسألني عن أثر الجانب الإيجابي من القصّة عليّ، ثم يسألني إن كان باستطاعتي رؤية القمر في ليلة البدر، أما جدتي فتتهمني بعدم الفهم.

لم يحول أبي نظره نحوي، فقط قال وهو يراقب تلك الأم توبخ طفلها الأكبر لأنه لم يشارك أخاه الأصغر اللعب: الأثر الآني لتلك الحكاية الواقعية عليكِ أن أثارت عواطفكِ، أن جعلتكِ تبكين لدرجة... لدرجة.....

توقف هنيهة، ونظر نحو عينيّ المحمرتين، وأكمل: لدرجة أن تؤذي نفسكِ؛ أوَ تظنين هذه هي فائدة قراءتك للقصّة؟!

أنتظر لحظة لأجيب عنه، لكني بالطبع لم أجبه، قررتُ بسذاجة التركيز على رؤية القمر، لربما تكمن الإجابة في صفحته البيضاء، لكني لم أجد هناك إجابة.

أبي العزيز قال: ألم تقرئي بقية رد عبدالوهاب مطاوع عليه، قال له ولكل القراء: املؤوا عيونكم بمن تحبون، انظروا في عيونهم، وأخبروهم أنكم تحبونهم، جالسوهم لساعات وساعات، قدموهم على كلّ أشغالكم، ولا تملوا أبدًا أن تقولوا لهم إنكم تحبونهم.

شهقتُ، كنتُ أرغبُ في مواصلة العزف على سيمفونية البكاء، لكن عيني جفت من الدموع.

أبي وجدتي انشغلا بأحاديث أخرى عن عمتي وأعمامي، أما أنا فظللتُ أراقبُ القمر، أملأ عينيّ منه، ووجدتُ هالة من الضباب الخرافي تحيطُ به، فأيقنت أنها انعكاس لما في عينيّ.

صاحب الدموع الحمراء، كان درسًا قاسيًا وخطيرًا، جعلني أملأ عينيّ بالنظر إلى وجه أبي، حتى كنتُ أحفظُ أدق التفاصيل الخاصّة به.

وكانت وفاة جدتي الغالية، بعد خمسة أشهر من ذاك الدرس، بداية لمشوار من الوجل والقلق الشديد من الاصطدام بفراق من نحب.

استبعدتُ فكرة الزواج لسنين، خاصّة بعد وفاة جدتي، كنت أخاف فراق أبي، لا أريدُ أن أستيقظ فأجد نفسي في بيت لا يشاركني هو فيه الإفطار وكل تفاصيل الحياة.

ولم أجد من يوافق على شرطي بالسكن في منزل أبي، إلا بعد أن بلغتُ الثلاثين، وكان هذا الشخص رجلًا مثقفًا، له عدد كبير من الإخوة والأخوات، وكانت فكرة بقائنا في بيت أبي هي الأنسب له؛ فهو يعملُ في حقول النفط البحرية، ويضطر للبقاء هناك قرابة الأسبوعين، ومن الأفضل له أن يكون والدي معي، ليزداد اطمئنانه علي.

أقيم حفل زفافي الذي اخترتهُ هادئًا وبسيطًا، في قاعة جميلة حالمة بورود بيضاء، وإضاءة خافتة، وموسيقى فيروز الهادئة، وسافرتُ مع زوجي لريف هولندا الهادئ؛ بعيدًا عن صخب المدن، وإثارة التسوق العبثي.

كان زواجي مفترقًا آخر من مفترقات الحياة الرائعة التي عشتُ تفاصيلها، وذقتُ حلاوتها مع أبي، فقد رزقتُ بعدها بطفل أسميتهُ باسمه، أسميته مباركًا، كما أسماني هو على أمه منذ أكثر من ثلاثين عامًا. ولم أكتف بهذا الطفل؛ كنتُ لا أريد لابني أن يكون وحيدًا، كنتُ أعيش عقدة الخوف والقلق من المستقبل، أنجبت بعدها بعام بنتًا رائعة الجمال، أسميتها دينا على اسم والدتي البعيدة القريبة، التي لا تفارق خيالي، وتزورني في الدوحة بين سنة وأخرى، كما أفعلُ معها.

أما طفلي الثالث الذي جاء صبيًّا هذه المرة فقد اعترض زوجي على اسمه الذي اخترتهُ، وقال: لقد تسامحتُ معكِ، وتركتُ لك اختيار أول طفلين لنا؛ فهلَّا تسمحين لي هذه المرة أن أختار اسم ابني؟! بالطبع لم أعترض، رغم أن اسم والده صعب في اللفظ، لكن ألا يكفيني أنه والد زوجي الطيب.

ليس بإمكاني منع ما حدث، ولا يجدرُ بي أن أسعى لاستنزال غضب الله عليّ بتفكيري في مقدار الآلام القاسية التي عاناها أبي وهو يعالج من الورم الخبيث في رأسه، ليموت في النهاية مصابًا إصابة بالغة في حادث سيارة.

كان أمرًا مؤلمًا بكل المقاييس.

استمرأتُ الألم في الصدمة الأولى، عندما بدأ أبي يشكو من صداع حاد في رأسه، لم تجد حبات المسكن طريقًا في تسكينه أو إسكاته. أما صدمة حادثة السيارة فلا معايير لأوجاعها!

اعتدتُ أن أصطحب والدي الذي تقاعد منذ نحو عامين من التدريس في الجامعة، لتناول الإفطار في أحد المقاهي الجميلة، ثم الاستمتاع بالتمشي معه على شاطئ كتارا.

لكن ذاك الصباح كان حافلًا بأمور أخرى، ما إن خرجتُ من الزحمة الخانقة أمام بوابة مدرسة ابني مبارك الذي صار في الرابعة عشرة، حتى اتصلت بي إدارة المدرسة تطلبُ حضوري حالًا، فابني قد دخل في عراك مع أحد زملائه، ولن يسمحوا له بإكمال بقية اليوم المدرسي.

عدتُ لاصطحابه، كنتُ أشعر بالسخط عليه؛ فلم تكن هذه هي المرة الأولى له، كان يرفضُ الاستماع إليّ، كما كان يرفضُ أن أوصله من الباب الأمامي للمدرسة، رغم أنه يدرس في مدرسة أجنبية خاصّة، وكان يفضل أن يذهب مع السائق، أو أن أقف بسيارتي بعيدًا ليسير قرابة شارع كامل لئلا يرى أصحابه أن أمه هي التي تقود السيارة.

كنتُ أنفذ له طلبه بلا اقتناع، مراعاة لسنه وفكره غير الناضج، لكني كنتُ ساخطة شديدة السخط عليه، وكنتُ أحيانًا أفكرُ بغضب بزوجي الذي لا يزالُ يصر على البقاء أسبوعين في البحر، كما كنا في أول زواجنا، لتحصيل بدلات كثيرة في الراتب.

في البداية لم يؤثر هذا النظام على زواجنا، ولا على اعتنائي بأطفالي، فأبي كان دائمًا إلى جواري، لكنه أثر عليهم في فترة مراهقتهم، وقد

تغيرت أساليب الحياة، وتبدلت على نحو غير مفهوم الأولويات؛ لا أدري حقًّا ما الذي جرى.

لقد أدخلتُ كلّ أبنائي مدارس خاصّة، ولكني لم أعد أرى أية خصوصية في أي شيء في حياتنا الخاصّة.

دَلَفْتُ للمنزل أصيح من شدة الغضب، كنتُ أصيحُ بابني في حوش البيت، حينما التفتُ لأرى أبي جالسًا بهدوء في حديقة المنزل، وهو يشيرُ إليّ لأهدأ وأقترب، في الحال نفذتُ له طلبه، وأسرعتُ الخطى نحوه، كدتُ أقع على وجهي عندما جثوتُ عند قدميه، لأسمعهُ يقول بنبرة متألمة: خذيني للمستشفى يا بنتي، الصداع يفتتُ رأسي.

الصداع يفتتُ رأس أبي!

فديتُ أبي، وفديتُ رأسه.

يا ليته فتتني أنا، ولا يمس أبي حتى شكة إبرة.

لم أجبه، إلا بهزة من رأسي، ساعدني ابني الذي كنتُ أصيح به منذ ثوان على مساعدة أبي حتى وصوله للسيارة، ثم جلس معهُ في الكرسي الخلفي مسندًا رأسه على صدره.

قدتُ السيارة بشكل خرافي لأتفادى الزحمة غير المفهومة التي شغلت شوارعنا، ودخلتُ شوارع أخرى جانبية كثيرة، رغم قصر المسافة، لأصل بسرعة لباب طوارئ مستشفى حمد.

رأيتُ ابني مباركًا يبكي، وهو يقولُ لي إن أبي لا يرد عليه. سقط مني مفتاح السيارة، وأنا أهمُ بالخروج منها، وشعرتُ بدوار عنيف يكادُ

يسقطني أرضًا، وعيوني تبحثُ عن أبي الذي يبدو كالنائم في حضن ابني، لكنه ليس كذلك؟!

كنتُ أصيحُ عند البوابة وأنا أؤشر عليه، وأقول: حالة مستعجلة. سرعان ما اقترب عدد من المسعفين، وحملوه في النقالة. وأنا أتبعه لاهثة بخطوات سريعة.

دخل أبي وحدة العناية المركزة ثلاثة أيام، كانت من أصعب أيام حياتي، زوجي كان حينها إلى جانبي، وأمي اتصلت بي أكثر من مرّة.

لم يخرج أبي معافى من وحدة العناية المركزة، أخبرني الطبيب - وليته لم يفعل - أنهُ مصاب بورم غير حميد في الدماغ، وأنه قد فات أوان العلاج؛ فالورم في مراحله الأخيرة!

كنتُ أهمّ بأن أصيح فيه، وأتهمه بالفشل، وعدم فقه أي شيء في مجال الطب، لكن زوجي وأبنائي تدخلوا، وأحاطتني ابنتي بذراعيها، وأخذتني بعيدًا.

أفاق أبي من غيبوبته، ليشهد الاحمرار في عيني، وهمس: لقد أخبروكِ إذن؟

كنتُ أمسحُ عيني بطريقة عشوائية، وأشدُ الشال على كتفي، وقلتُ بنبرة حزينة: كنت تعرفُ؟.

لم يجب، مد يده نحوي، كأنه يطلبُ مني أن أساعده ليرفع نفسه، ويسند ظهره للسرير، وقال بنبرة راضية: لكل شيء نهاية، وأنا أعالج في مستشفى الأمل منذ عام، ولكن بلا فائدة... كنتُ أعلمُ بهذا.

كنتُ أشهق من أثر البكاء، فمسح على رأسي وقال بهدوء: ماذا بكِ يا عزيزتي، أين الرضا والحكمة؟.

أرحتُ يدي بين كفيه، وقبلتُ ظهرهما مرات ومرات، وهو يكرر: رضي الله عنكِ يا ابنتي، فأنا راضٍ عنك.

قلتُ وأنا لا أزالُ أدافع شهقاتي المتعددة: أتعلمُ أنك كنت في غيبوبة؟.

ابتسم وأجلسني قربه، وألحفني بلحافه، وسأل بلا مبالاة: وما السبب؟

اقتربتُ منه أكثر، ودفنتُ رأسي في صدره، وأنا أتحسسُ أنفاسه بيدي، وقلتُ: لقد أصبت بانخفاض شديد في الضغط تسبب في الغيبوبة، لكن الحمد لله أنك أفقت منها.

وكرر برضا وإيمان عميق: الحمدُ لله دومًا وأبدًا.

ثم استأنف وهو يراقبني أعتدلُ في جلستي على الكرسي المقابل له، وقال:

الحمدُ لله... هذه خيرُ كلمة قلتِها حتى الآن.

هدأتُ...

أبي بارع في تغيير المواضيع، حدثني عن أبنائي المراهقين الثلاثة، وقال لي إن ما يمرون به أمرٌ طبيعي في سنهم.

وافقته رأيه، وقلتُ: ولكني لم أفعل معك ما يفعلونه بي الآن؟

ابتسم وهو ينظر للخارج، من شباك علوي يطلُ على مدينة الدوحة

التي تعجُ بضجيج الخنقة المرورية في الليل والنهار، وقال برزانة:

زمانهم غير زمانكِ، وزمانكِ كان مختلفًا عن زمني، وهذا ما حدث معي وأمي كذلك.

صمت لبرهة، ثم قال بنبرة هادئة: انظري للشارع، أتذكرين أننا رأينا شوارعنا مزدحمة بهذا الشكل منذ عشر سنوات مضت، لا بالطبع لا؛ اختلف الوقت، وعلينا أن نتأقلم ونتعايش معه.

كنتُ أجلس بقرب أبي في سيارة الإسعاف عندما نقلوه لمستشفى الأمل. اسمهُ على النقيض من اليأس، إلا أنني كنتُ فيه خاوية من الأمل، وعلى العكس مني كان أبي، الذي كان يعالج آلامًا مبرحة، لا تسكتُ عنه إلا بجرعات عالية من المسكنات القوية.

وكنتُ طوال بقائي معه، أحدقُ فيه، في عينيه الذابلتين، أبحثُ في ملامحه وتقاطيعه المليحة عن كلّ شيء؛ عنه هو... في داخلي أنا.

أنا راحل... بلا مواربة راحل.

هكذا قال لي مساء الاثنين الماضي.

وانسابت دموعي، تمسح أحلامي ودنياي، وتواسيني.

كيف لا أبكي وأعز الناس يودعني!

قال في لحظة الوداع الأليمة: أنا راحل.... بلا مواربة راحل.

لم أبد أية ردة فعل انفعالية، كنتُ بالفعل مفعمة بالشحنات الانفعالية. وكنتُ أعلمُ هذا، لكني جبانة، حبي له صنع مني شخصًا جبانًا... غير

قادر على مواجهة حقائق الحياة.

قال لي: أنا راحل، والراحلون لا يعودون، وأنا لن أوصيك على مال أو غيره من تفاهات الدنيا. لقد أمنتكِ جيدًا، أمنتكِ عندما علمتكِ الصلاة والحجاب وارتداء اللباس المحتشم، واحترام الآخرين، ومراعاة القيم.

هززتُ رأسي بلا حيلة، ثم أكمل بصوت ضعيف ونبرة خافتة: ولن أوصيكِ بعمل شيء لي، رغم أني أعلمُ أنكِ ابنة صالحة، فأنتِ تعلمين أنني قمتُ ببناء آخرتي بنفسي، بنيتُ مسجدًا ومدرسة، وحفرتُ آبارًا، وأشياء أخرى سأتركها لتكون بيني وبين الله.

كنت أوافق بهز رأسي، وقد فقدتُ القدرة على النطق، مدّ يده نحوي، وقال بنبرة مشفقة: هاتي يدكِ لتحتضن يديّ.

توقف نحو دقيقة أو أكثر بقليل، وهلت دموعه، وسالت على وجهه الشاحب، ثم قال بصوت حنون وهو يمسحُ دموعه:

يا حبيبتي، إنها دموعي... ليس في الحجرة أي غبار... وأنا أبكي لأني سأشتاقُ إليكِ، إلا أني سألقاكِ بعد عمر طويل في الجنة، في الفردوس الأعلى بحول الله وقوته.

ابتسم ابتسامة رضا عذبة، وترك دموعهُ تنسابُ تباعًا بشجاعة، وأكمل:

ما يصبرني يا حبيبتي، هو أني قد اقتربتُ من لقاء الله، بعد طول اشتياقٍ لرؤيته.

الحبُ، ما الحب؟ إنه أنا وأبي.

أحببتهُ. أحببتُ أبي، وهو أحبني، وكلانا أحب الله، واللهُ دومًا أحبنا فيما أرجو.

الحب والفراق صديقان، نحن نحبُ فنفارق، وبعد أن نفارق نظلُ نحبُ. هذا هو قدرنا.

إن للفراق وجوهًا، وجه البعد، ووجه الشوق، ووجه الوجع، ووجه الحزن، وأخرى كثيرة تتبعها. وله أبعاد، لا مرئية، لا يعلمُ مداها إلا من قاسى مرارتها.

في آخر ليلة قضيتها ساهرة قرب فراشه، أحاطني بذراعيه الحنونين، وقال بنبرة ضعيفة حافلة بالدفء: وردتي الغالية منى، أنا أحبكِ.

كان تعبًا، شاحبًا، غائم الوجه! احتضنتُ وجهه الحنون بين يدي، وطبعتُ قبلة على رأسه، وعلى جبينه وخديه، وقلتُ له:

وأنا أحبك يا أعز الناس.

وفي تلك الليلة الأخيرة التي ودعني فيها بعبارات الحب الأبوي العظيم، طلب مني الرجوع للمبيت في البيت ثم العودة صباحًا باكرًا، ولسبب مجهول وافقت.

كان أصعب يوم في حياتي يوم مات أبي أمام عينيّ.

استيقظتُ فزعة على صوت المنبه، لا.. لم يكن المنبه، كان رنين الهاتف النقال، صحتُ فزعة، وأنا ألتقطهُ من على المنضدة القريبة من رأسي، أبي... أبي... أمات أبي؟

كان الاتصال بشأن أبي، لكنهم طلبوا مني التوجه لقسم الحوادث؛ أبي كان في طريقه لمدرسة ابني في السيارة التي كان يقودها السائق، وأصيب إصابة بالغة في حادث سيارة توفي فيها السائق كذلك.

كنتُ أقود سيارتي بسرعة جنونية، أبي المريض مرضًا شديدًا، خرج من المستشفى ليحل مشكلة في مدرسة ابني المراهق، الذي لا تنتهي مشاكله أبدًا، لا أريدُ أن ألوم ابني، أو أشفق على شفقة أبي عليّ، كنتُ أريدُ أن أعرف أن أبي بخير وحسب.

عندما وصلتُ، ولا أعلمُ كيف وصلتُ لقسم الحوادث، كان الكثير من الأطباء يحيطون به، سمعتُ أحدهم يقول: لا فائدة من إدخاله لحجرة العمليات، إصابته بالغة.. وحالته حرجة.. إنه مريض سرطان في مرحلة متأخرة... فلم خرج من مستشفى الأمل... وكيف خرج؟!

اقتربتُ منه، احتضنتُ كفيه، وقبلتُ رأسه، ودعني بنظرة من عينيه الحنونتين، وضغطة خفيفة على كفيّ، وقربتُ أذني من فمه، كان يردد الشهادة مرات ومرات، فرحتُ من أجله، وبكيتُ من أجلي.

فارقني العزيز الغالي، فارقني أعز الناس، فارقني أغلى البشر.

منذ سنين طوال، بكيتُ واحمرت عيني مشاركة لوجع شخص لا أعرفه، يبكي فراق والده، فكيف بي وقد فارقتُ أبي.

الفراق، مرّ الحياة، وأصعبها خبرة.

واللقاء هو جزء من ذاك الفراق.

الفراق قوة جاذبة، لمشاعر اليأس والإحباط والاستياء.

غريبة هذه الحياة، تجمعنا بأعز الغالين، وبلا مقدمات تحجبهم عنا!

إنني أمقت الفراق، أمقت وجعه وهزائمه.

الفراق مؤلم، والأشد إيلامًا، أن بعضنا لا يقدرُ مشاعر وجع الفراق، بل يعتبرها سخطًا، وجحودًا للقدر، ومن هم ليحكموا على مشاعر البشر، وما أدراهم هم بالقدر؟

ترى ماذا لو اختفى الفراق؟

هل سيظلُ للوجع هوية أو رجعة؟

في كلّ مرّة، أصحو على نفس السؤال، لكن أبدًا لم يتكرر معي نفس الجواب!

فاطمة الكواري

(بداية أخرى)

فاطمة خلفان الكواري

- قاصة وشاعرة وصحفية
- كاتبة مقال في جريدتي الشرق والوطن، وسابقاً في مجلة العهد والجوهرة النسائية
لها زاوية أسبوعية في جريدة الوطن بعنوان «عين الواقع»
- حصلت على شهادة تكريم من مكتبة الخنساء
- شاركت في العديد من الأمسيات والمهرجانات الثقافية محلياً وخارجياً
- نشرت كتاباتها في العديد من الصحف المحلية والخليجية والعربية والمجلات الثقافية

صدر لها :

- (2000): «بداية أخرى» مجموعة قصصية (ترجمت إلى اللغة الانجليزية)

بداية أخرى

من أعلى جسم ضخم يتمايل.. خطوط على سطح الحياة.. ارتفاع شاهق.. بقع تتلون بنية أو رمادية أوسوداوية قاتمة.. أشكال مثلثة وسداسية.. تميل إلى الاستطالة.. مواقع شاسعة فرت من نبض الحياة..! سيل من الذكريات لاتحدها تخوم، أزيز الطائرة يربك استرخائي واسترخاء مصطنعًا يفتعل فيه المسافرون إظهار هدوء بطولي.. ضجت خلفه بلبلة مضطربة من الهواجس المستعرة بالترقب الأجوف، كلما أوغلت الطائرة في البعد الكوني، غثيان يفتعل الضجيج في خلايانا المستسلمة لقبضة الأحداث، أنبه حواسي... أثير شهيتها للقراءة.. أسترسل بنصف وعي..

تأتي فارعة الطول والشجاعة متقنة دورها وخطوط عينيها وشفتيها بمزيج من شفافية الأزرق والأبيض ونرجسية الأحمر.. وعلى صفحة خديها نثرت بقاياه.. وجه ووجه آخر ثم وجه يحمل نفس الألوان والدرجة.. أحتضن كتابي وتركت نظري وفضولي ينتشيان.. كلهن يوزعن خطوط ابتسامة واحدة.. شقراوات.. سمراوات.. طلة بهية..

تثير شهية الركاب نحو تدفق أبدي!

يشربون.. يأكلون.. يتجشؤون.. يحملقون.. أحملق في تلك الرغبات والدخان.. دخان يرسم خطوطًا فزعة.. خرجت مع أنفاس المدخنين.. أخيلة وأمزجة ونقاط فاصلة.. احتشدت في خانة الوسيلة أتشبث بالصورة الآنية وهسهسة الأصوات الفوضوية.. سفر ذاتي.. يطوقه سفر الذوات الأخرى.. أجاهر بتعويذة تنتشلني من رتابة الزمن في ذلك المدى البعيد..

بالرغم من أن الشاشة أمامي تشير إلى موقعنا.. إلا أن استيعابي يتشتت كالسراب.. في وضح نهار حار جدًا!

أطلق تعويذات أخرى.. تختلط وهمهمات الركاب وسعالهم.. وبعضًا من صدى قهقهات.. أجساد متكومة في مقاعد تمتد أحزمتها وتضيق تماشيًا مع المقاسات الآدمية.. تخمة نعاسية جارفة جذبت حواسي المتيقظة.. شعرت بالتخثر.. انخرطت في عالم اللاوعي.. لا أدري كم مكثت فيه.. رجة خفيفة أحسستها بنصف وعي.. قاومت المحسوسات الخارجية.. ثمة حلم يغريني..

أناضل من أجل إغفاءة سريالية.. رجة ثقيلة تسحبني من أطرافي.. أفيق وشعور بهبوط قسري.. سيل من الانخفاضات المتتالية.. تضيء أعيننا مع إشارات ربط الأحزمة.. حركة يلجمها الفزع.. يتوقف الدبيب المعتاد في الممر.. أشتهي أن أبلل جفاف معرفتي.. ألكز رفيقة رحلتي.. لا أجد منها تجاوبًا يذيب كمية القلق الذي بدأ يتدفق في وعيي.. أطعن إغفاءتها بحسد وقتي.. ولا أعيد الكرة.. ثمة غموض يكتنف أجهزة الإضاءة.. ثملون يصرون على إطلاق ما يجيش في خواطرهم بصراخ

يشبه الغناء الأوبرالي..

الخلل بدأ يستفز طبيعة الأشياء المصطنعة.. فتنتصب علامة الاستفهام على جدار الجباه.. تقف إحداهن بجانبي.. أللم بعضًا مما أعرف من لغتها.. أطلب كوبا من الماء.. وكأن الخلل لا يعنيني.. توافق على مضض.. الغموض استل سيف هويته.. وغرق نصف المكان في ظلام دامس.. اشتعلت حركة ذوات الخطوط المتشابهة فلم يتحقق طلبي.. وفقدت فرصة الارتواء..

ظلت الدقائق فارغة إلّا من خطواتهم.. وهن يذرعن الممرات ممسكات بمصابيح تضيء عتمة الخوف التي غزت نفوسنا نحن المتكئين على عتبة الخطر.. يملأ الكابتن فراغ الدقائق الموغلة في الرحيل.. ويطلق نار الكلمات.

تقفز نظراتنا وأسماعنا.. لتلقف تلك الطلقات التنويهية.. تتوغل كلماته النارية في كومة خوفنا الجليدي..

سيداتي سادتي.. أرجو الانتباه! تيقظت حواسنا وأفلتت من كلّ شائبة ضجيجية... واصل معيدًا نبرته الأولى خوفًا أن صوته لم يصل إلى آذاننا.

أعزائي لا أود أن أثير مخاوفكم.. هناك خلل فني طارئ أصاب بعضا من أجهزة الطائرة ومن موقع المسؤولية سأضطر لقطع الرحلة والنزول في أقرب مطار.. آمل أن نهبط بسلام، وكما أحب أن أشير إلى أن الأمور على ما يرام وتحت سيطرتي، أشكركم ولا داعي للقلق..

لثم الصمت فاه الحذر وجو المكان، ابتلع الهدوء بعضًا من الهمسات..

وتحرك الذهن يعيد لقطاته الإنسانية بمختلف الوجوه.. وفاض الشوق بحنين الأحبة.

وكأنه يثير عاطفة الحدث السيِّئ حتى يعدل عن الوقوع!

سيطر الضباب على عناقيد الأمنيات المعلّقة بسقف الأفق.. انتصب الرجاء في بوتقة الرغبة.. فانصهرت بدواخل الوجود لا أحد يرغب بالمغادرة بطريقة المباغتة.. تلألأت الدموع وتجمعت تحسبا للانحدار من مآقيها.. متوسلة صمام السلامة بالثبات.. تسللت تنهدات مولعة بعبق الحياة.. تواقة للهبوط في كلّ محطاتها.

نبشت ذاكرة رفيق رحلتي وحياتي بسؤال ثمل من جملة أسئلة ارتعدت أمام بوابات الإجابة المغلقة على سطح مخيلتي عندما برزت منه نتوءات مدببة من الهلع.

ترى من سيظلل تلك الطيور المنتظرة، لو لم نعد بجناحيه بعد رحيلنا؟؟

طوق سؤالي المبهم بابتسامة خارجة عن قاعدة الخوف ويتحد صلب مغامر.. وبالرغم من هشاشة الموقف مد يده يحتضن يديَّ المرتعشتين ويبث عبر مساماتهما نبض السكينة التائهة في الطرق الممتدة على خارطة عروقي.. نحصر نحن رفقاء الرحلة كلّ نبضاتنا في دائرة تضج بالأوكسجين، نتواصل عبر ذبذبات الصبر عند أطراف الشدائد يأتينا صوت الكابتن متسللا موجات الغربة في أعماقنا.. يفتح أذهاننا لتجربة جماعية في اختراق خط الرجعة.. والهبوط بميلاد جديد.. تميد اللحظات وتهتز بعض من ثوابتنا.. كلّ الأشياء ترتجف.. تعصف

بقبضة الزمن.. نتشهد.. نحاول أن نتجرد من حب الحياة وكل ما فيها ونتشبث بحب آخر.. نشعر بجاذبية غاضبة تستدعي الجسم المعدني القابع في داخله.. تراتيل.. صلوات تعددت لغاتها واتحدت في رجائها.. ننجذب نحو الأسفل وضغط الجو يصم آذاننا.. نهبط وإدراكنا يستسلم بجهله من ماهية اللحظات والدقائق ومن أي نفق ستمر.. وفي أي مستقر ستحط برحالها.. وتنبثق قرقعة الأشياء الزجاجية من قوارير وكؤوس عندما ترتطم عجلات الطائرة بالأرض.. فجأة.. يلملم شبح الموت ملامحه من مخيلتنا.. وترخي النجاة أعصابها المشدودة في شراييننا نقتسم بأعيننا ومضه عميقة بالامتنان للخالق.. نصطف طابورًا بشريًا يرجو خلاصًا من تلك القبضة الخانقة.. تفتح أبواب الطائرة.. يسور شفاهنا ابتسامة مذهول.. نستنشق بعمق نسائم بداية أخرى!!..

محسن الهاجري

(حرام عليك)

محسن فهد الهاجري

- قاص وكاتب من مواليد(1973م)
- حاصل على بكالوريوس هندسة ميكانيكية، جامعة قطر عام 1997م
- شارك في العديد من المهرجانات الثقافية والأمسيات الأدبية
- نال وشاح الاستحقاق من جامعة الدول العربية للشباب المميزين في مجال الإبداع الثقافي
- له زاوية أسبوعية في جريدة الشرق بعنوان (أقول لكم)

صدر له:

- البلاغ
- حرام عليك
- بنات إبليس

حرام عليك

«حرام عليك».. تقولها همسًا عندما يوقظها من أحلى ساعات نومها في منتصف الليل ليمارس رجولته في ربع ساعة أو نصف ساعة، ليدير بعدها ظهره لها فيغط في نوم عميق.. له بداية معرفة.. وله نهاية نكرة؛ فهو يستيقظ في أي وقت، ولذا عليها إعداد الحمام له على أكمل وأتم وجه.

«حرام عليك».. تقولها همسًا عندما يجلسان معًا لمشاهدة التلفاز، فتدور عينيه في النساء منتقية ماتناسبه، ليردد أمامها عباراته اللامبالية:

-هذه جميلة.. أوه.. هذه أكثر فتنة من سابقتها.. آه.. أما هذه.. فهي ملكة جمال حقًا.. وهذه رائعة القوام.. آه.. ماأحلى هذا الغد.. سبحان من صورك ياحلو.. الله.. ياروحي على الابتسامة.. ياعيني على العيون..

غير آبه بالتقاطها رصاصاته في قلب أنوثتها، حتى إذاما زادت حسرته

على مايشاهده من نساء التفت إليها ونفخ دخان سجائره في وجهها وهو يقول:

- الله يعوضنا إن شاء الله..

«حرام عليك».. تقولها همسًا عندما يصحبها إلى سيارته -وقلما يفعل- يقودها بسرعة مريعة، لاتوقفه منعطفات أو إشارات ونحوها، إنما توقفه أفعاله الصبيانية.. ينزل ليتعارك مع سائق آخر.. فيسب ويشتم ويبصق، وإذاما انتهى من شجاره عاد إلى السيارة وهو يوعد ويهدد، ويلعن كلّ من يمر أمامه، لايهدئ من روعه شيء إلا أولئك النسوة اللاتي يمر بجانبهن أثناء محاذاته لسياراتهن، فيخفف من سرعته لدرجة ملحوظة، تمامًا كما يفعل المراهقون، بيد أنه لايتمادى كثيرًا، فسرعان ما ينطلق بسرعة جنونية أخرى عندما يلمح ظل رجل بقربهن، أو عندما يلحظ سيارة شرطة بالجوار..

كان بودها أن تصرخ لتخرج مافي جعبتها من أوجاع كتمتها عنه لفترة طويلة، ضاق صدرها بكل شيء، فلم يعد يطيق أكثر، امتلأ بتفاهاته واستهزائه وشماتته وسخافته ووحشيته، وهي ما تفتأ تكتم همساتها عنه، تخاف أن تصل أنفاسها الحارة إليه، تخاف أن يدرك شيئًا من تأففها، تخاف أن يلتقط تنهداتها المكتومة وأن يلحظ شيئًا من عرق الخوف الذي يغطيها حينما يقترب منها..

لقد اعتادت على ذلك؛ كيف لا وهي التي رُوِّضَتْ في أول ليلة معه؟! جلست تتذكر ليلة زفافها، يطاردها شبح هذه الليلة في كلّ وقت، تريد أن تنسى ولكن لامفر، وهل تنسى العروس ليلة عرسها؟..

«حرام عليك».. لم تجهر بها إلا مرّة واحدة في حياتها.. قالت له في ليلة زفافها إليه، هاهي ذي تتذكر تلك الليلة المشؤومة.. وهاهي ذي الليلة تبدأ الآن، ترجع أحداثها بشكل سريع، تمهيدًا لبدء العرض.. إنها البداية..

جلست في الغرفة تنتظر قدوم الزوج ودخوله الأول إليها منشيًا بها سعيدًا بقرب اختلائه بعروسه، جلست يؤرقها منظر الباب، ترتعش أطرافها من الخوف، ولكنها تبدو متجلدة بعض الشيء، تترقب دخوله في أي لحظة، حتى إذا فتح الباب كان ذلك الزوج بجثته الضخمة هو القادم من خلاله.. ليعلن البداية..

كانت جالسة على طرف سريرها الجديد، تخفض رأسها في خجل شديد، يأكلها القلق وتنهشها الحيرة، تترقب حركاته داخل الغرفة، استغربت لبرودة أعصابه ولهدوئه القاتل، فانتظرت مجيئه إليها.. في صمت.

جلس بجوارها أخيرًا، بعد أن أخذ يدندن ويغني في الغرفة، لم ينظر في وجهها كثيرًا، ولم يطل الحديث معها، بل لم يتحدث معها أصلًا، شرع في لثم شفتيها بعنف وأخذ يمطرها بالقبلات بشفتيه الغليظتين، مطوقًا عنقها بيديه الخشنتين. أحست باختناق ولكنها لم تنطق بشيء، شعرت أنه يحاول إمالتها نحوه فلم تستجب له، فرمى بثقل جسمه عليها فارتمت على السرير تنظر إليه يقترب منها بشفتيه لها.. ولم ينقذها من ذلك.. إلا الباب.

عدّلت هيئتها وزال اضطرابها قليلًا، بينما جلس هو مفترشاً الأرض

وواضعًا العشاء أمامه، لم يتحدث معها منذ دخوله عليها حتى الآن، توقعت أن يبدأ الآن في الكلام ودعوتها للنزول لتناول الطعام معه، ولكنه بدأ في شيء آخر..

لقد بدأ في تناول العشاء.. غير مبال بها، يأكل بنهم شديد، لايعيرها أدنى اهتمام، استغربت فعلته تلك، وأدركت أنها لابد أن تخلع ثوب الحياء وتنزل معه لتناول الطعام؛ فهي جائعة جدًا، ولكنها انتظرته لكي يدعوها فلم يفعل، فأيقنت أنه نسي الذوق وقتها أو ربما أنساه الجوع ذلك.. ولكن انهماكه في الأكل، أكد لها الأمر الثاني.. فرقّت لحاله ونزلت بقربه حذاء الطعام..

انتظرت حتى يعيرها التفاتة فلم يفعل، انتظرت كي يطعمها بيديه لقمة أو أكثر فلم يفعل، فما هي إلا لحظات حتى شرعت تضع يدها بنفسها على أول لقمة لها مع زوجها في أولى ليالي حياتها الزوجية.

ولكن.. ما إن فعلت ذلك حتى صاح الزوج بكامل صوته، فرمت لقمتها فزعة مرعوبة، ونظرت إليه في وجل، فإذا بعينيه تشتعلان ويحمر لونهما، فأحست وكأن سياطًا من النار تخرج منهما فتجلدها، وخرجت من فمه أولى كلماته لها:

- اسمعي يا امرأة.. هذه أول وآخر مرّة تأكلين فيها معي.. أنا أولًا.. ثم تأتين من بعدي تأكلين.. أفهمت يا امرأة؟

صدمت لسماعها ذلك منه، وكاد أن يغمى عليها لولا أن تمالكت نفسها، وارتعشت وهي تقول له:

- حرام عليك.. حرام عليك.

لقد كانت أول مرّة تقول فيها هذه الكلمات له، بل إنها أول مرّة تعلن عما بداخلها له، لأنها بعد ذلك لم تستطع أن تفتح فمها بشيء.. طيلة حياتها.

الفهرس

مقدمة 5

كَلْثَم جَبْر (الموت مرتين) 19

محمد حسن الكواري (أبدًا لم تكن هي) 31

حسن رشيد (الحضن البارد) 41

هدى النعيمي (في مخدعي أخرى) 47

طرفة النعيمي (الصمت الأول) 55

بشرى ناصر (حدث ذات مرّة) 61

لولوة خلف البنعلي (في قريتنا ذئاب) 75

جمال فايز (يوم العيد) 85

دلال خليفة (الخيل وفضاءات البنفسج) 91

نورة آل سعد سَمِيَّتِي (المرقاب 1970) 123

شمّة الكواري (مع أبي) 133

فاطمة الكواري (بداية أخرى) 155

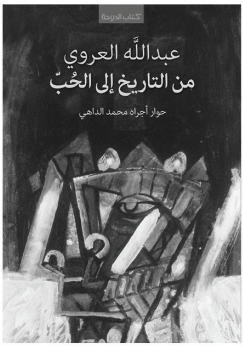
محسن الهاجري (حرام عليك) 163

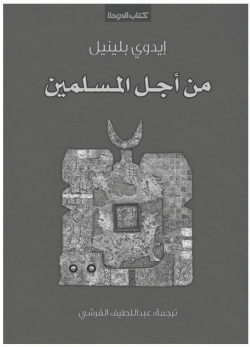
صدر من سلسلة كتاب الدوحة

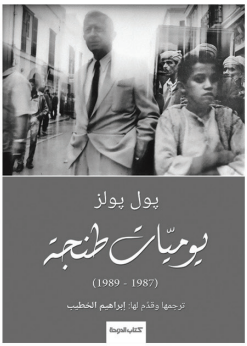
1	طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
2	برقوق نيسان	غسان كنفاني
3	الأئمة الأربعة	سليمان فياض
4	الفصول الأربعة	عمر فاخوري
5	الإسلام وأصول الحكم - بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام	علي عبدالرازق
6	شروط النهضة	مالك بن نبيّ
7	صلاح جاهين - أمير شعراء العامية	محمد بغدادي
8	نداء الحياة - مختارات شعرية - الخيال الشعري عند العرب	أبو القاسم الشابي
9	حرّية الفكر وأبطالها في التاريخ	سلامة موسى
10	الغربال	ميخائيل نعيمة
11	الإسلام بين العلم والمدنيّة	الشيخ محمد عبده
12	أصوات الشاعر المترجم - مختارات من قصائده وترجماته	بدر شاكر السياب
13	امرأتنا في الشريعة والمجتمع	الطاهر حداد
14	الشيخان	طه حسين
15	ورد أكثر - مختارات شعرية ونثرية	محمود درويش
16	يوميات نائب في الأرياف	توفيق الحكيم
17	عبقرية عمر	عباس محمود العقاد
18	عبقرية الصدّيق	عباس محمود العقاد
19	رحلتان إلى اليابان	علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ
20	لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهاية)	ميخائيل الصقال
21	ثورة الأدب	د. محمد حسين هيكل
22	في مديح الحدود	ريجيس دوبريه
23	الكتابات السياسيّة	الإمام محمد عبده
24	نحو فكر مغاير	عبد الكبير الخطيبي
25	تاريخ علم الأدب	روحي الخالدي
26	عبقرية خالد	عباس محمود العقاد
27	أصوات الضمير	خمسون قصيدة من الشعر العالمي
28	مرايا يحيى حقي	يحيى حقي
29	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
30	عبدالله العروي من التاريخ إلى الحب	حوار أجراه محمد الداهي
31	فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللّغة العربيّة	
32	عام جديد بلون الكرز (مختارات من أشعار ونصوص مالك حداد)	ترجمة: شرف الدين شكري
33	سِراج الرُّعاة (حوارات مع كُتاب عالميّين)	خالد النجار
34	مقالة في العبودية المختارة (إيتيان دي لابويسيه)	ترجمة: مصطفى صفوان
35	عن سيرتَي ابن بطوطة وابن خلدون	د.بنسالم حمّيش
36	حي بن يقظان - تحقيق: أحمد أمين	ابن طفيل
37	الإصبع الصغيرة - ترجمة: د.عبدالرحمن بوعلي	ميشال سار
38	محمد إقبال - مختارات شعرية	محمد إقبال
39	تزفيتان تودوروف (تأمُّلات في الحضارة، والديموقراطية، والغيرية)	ترجمة: محمد الجرطي

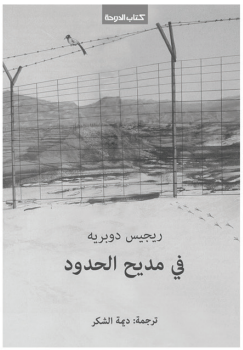
40	نماذج بشرية	أحمد رضا حوحو
41	الشرق الفنّان	د.زكي نجيب محمود
42	تشيخوف - رسائل إلى العائلة	ترجمة: ياسر شعبان
43	إلياس أبو شبكة «العصفور الصغير»	مختارات شعرية
44	لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟	الأمير شكيب أرسلان
45	مختارات من الأدب السوداني	علي المك
46	رحلة إلى أوروبا	جُرجي زيدان
47	المُعتمدُ بنُ عبّاد في سنواته الأخيرة بالأسر	د.عبدالدين حمروش
48	تاريخ الفنون وأشهر الصور	سلامة موسى
49	من أجل المسلمين	إيدوي بلينيل - ترجمة: عبداللطيف القرشي
50	زِينة المعنى (الكتابة، الخط، الزخرفة)	يوسف ذَنّون
51	الواسطة في معرفة أحوال مالطة	أحمد فارس الشدياق
52	النخبة الفكرية والانشقاق	د. مُحسن الموسوي
53	ياسمينة وقصص أخرى	إيزابيل إيبرهاردت
54	آباي (كتاب الأقوال)	ترجمة وتقديم: بوداود عمير
55	مأساة واق الواق	ترجمة: عبدالسلام الغرياني
56	بين الجزْر والمدّ (صفحات في اللّغة والآداب والفنّ والحضارة)	محمد محمود الزبيري
57	ظلّ الذّاكرة (حوارات ونصوص من أرشيف «الدوحة»)	مي زيادة
58	الرحلة الفنّية إلى الديار المصرية (1932) تحقيق: رشيد العفاقي	قسم التحرير «مجلّة الدوحة»
59	قيصر وكليوبترا	أليكسي شوتان -تعريب: عبد الكريم أبو علو
60	الصين وفنون الإسلام	إسماعيل مظهر
61	براعمُ الأمل (مُختارات شِعْريّة للكاتب الصيني وانغ جو جن)	ترجمة: مي عاشور
62	التّوت المُرّ	محمد العروسي المطوي
63	درب الغريب	غونار إيكليوف
64	من والد إلى ولده	أحمد حافظ بك
65	التلـــميذ	بول بُورجيه
66	ملحَمة جلجامِش	تقديم وترجمة: طه باقر
67	أريجُ الزّهر	الشيخ مصطفى الغلاييني
68	اعترافات إنسان	محمّد فريد سيالة
69	مريود	الطيب صالح
70	المقالات الصحفية	عبدالله كنون
71	قصص قصيرة	نجيب محفوظ
72	بول بولز - يوميات طنجة	إبراهيم الخطيب
73	فنّ الحَياة	سلامة موسى
74	أَقْوَمُ الْمَسَالِكِ فِي مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ الْمَمَالِكِ	خير الدين التونسي
75	كتاب الأخلَاق	أحمد أمين
76	رِحْلَةٌ جَبَلِيَّةٌ رِحْلَةٌ صَعْبَة	فدوى طوقان

من إصدارات سلسلة كتاب الدوحة

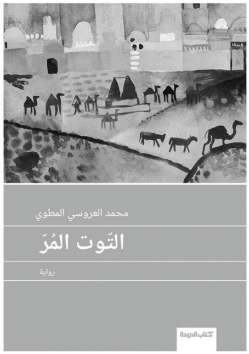












يمكنكم تصفح النسخة الإلكترونية من كافة إصدارات السلسلة
على موقع مجلّة الدوحة الإلكتروني www.aldohamagazine.com

«بدت القصّة القطرية مدركة لسياقات تكوينها الثقافي، وقيمها الحضارية، والموروثة، وهذا ما يجعلها منفتحة على التعبير والتأويل، والمساءلة، أضف إلى ذلك النقد والبحث في قراءة هذا الواقع الجديد، ومن هنا لا بد أن تُطرح مشكلة الهوية الثّقافيّة، والقيم، وصيغة المكان، والزّمن، بالإضافة إلى تبني قيم إنسانية، أو محاولة صونها في مواجهة قيم العولمة، والحداثة، علاوة على بروز أسئلة كبرى تطال المرأة، ومنظورها الخاص لهويتها الأنثوية، والإنسانية معًا؛ حيث شكلت هذه الثيمات مجتمعة أحد أهم محاور الخطاب القصصي في قطر، ولتغدو القصّة منصة تعبيرية، أو المدونة الأنسب لتصوير هذه التحولات ومساءلتها..».

بعد صدور هذه المختارات مترجمة إلى اللغة الإنجليزية، وإلى اللغة التركية بمناسبة العام الثّقافي بين قطر وتركيا، وإلى اللغة الألمانية احتفاء بالعام الثّقافي بين قطر وألمانيا 2017، تكون هذه المختارات قد اكتسبت أهميتها من كونها تعكس، بلغات عدة، المشهد القصصي المعاصر في قطر، والذي تواصل إدارة البحوث والدراسات الثّقافيّة في وزارة الثّقافة والرياضة مواكبته من خلال نشر النسخة العربية ضمن كتاب مجلة الدوحة المجاني.

دولة قطر
وزارة الثقافة والرياضة
www.aldohamagazine.com